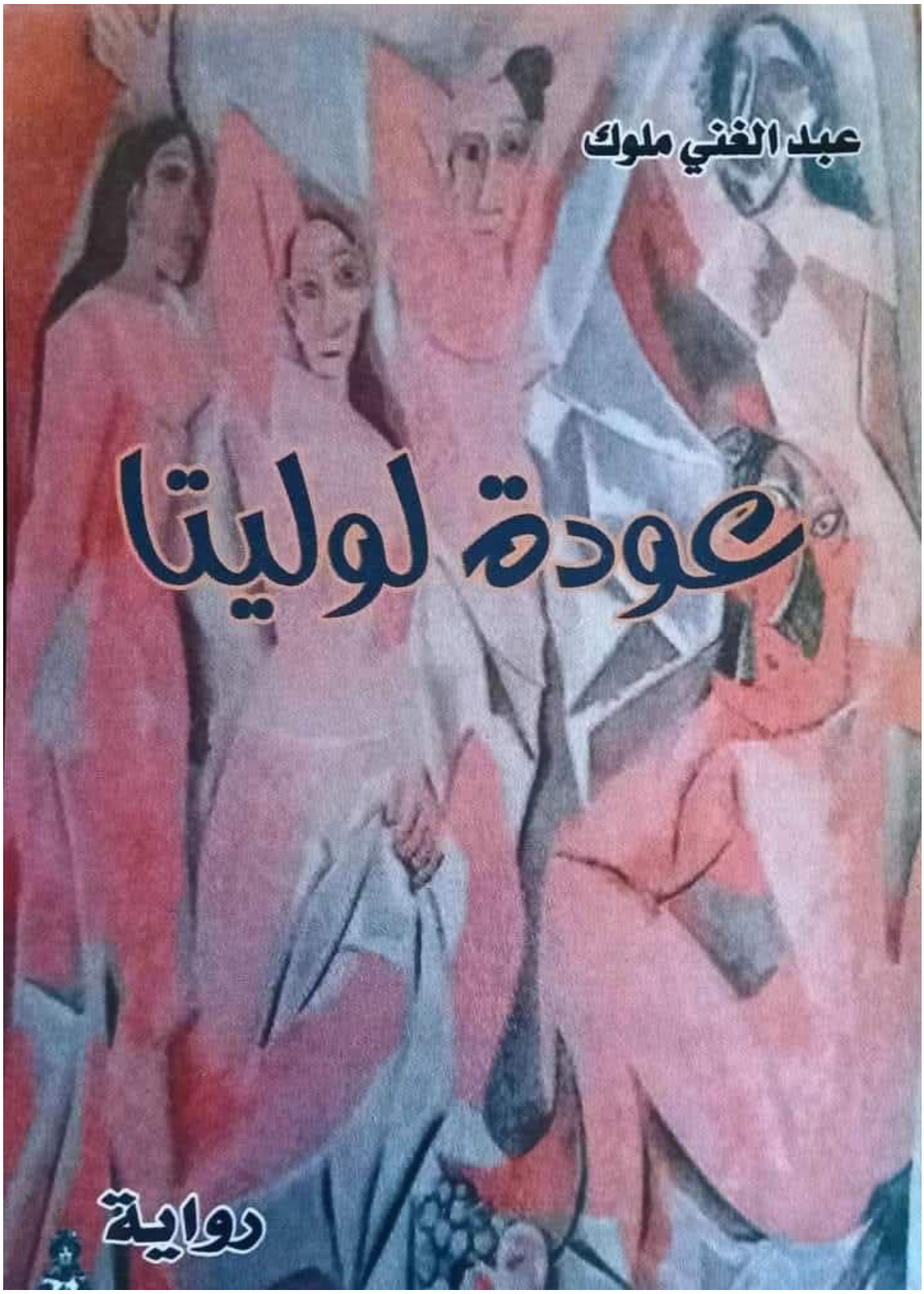
عبد الغني ملوك
عودة لوليتا
رواية

عبد الغني ملوك

عودة لوليتا

رواية

- ***لوليتا***
- ***رواية***
- ***الطبعة الأولى 2020***
- ***جميع الحقوق محفوظة***

لا شيء يفقد ... لا شيء يولد ... الكل يتحول

لافوازييه

الفصل الأول

ها أنا الآن أحلق فوق مطار دمشق الدولي بطائرة أقلعت من روما إلى سوريا بعد غربة دامت خمسة وثلاثين عاماً قضيت معظمها في ايطاليا وتجولت خلالها في كافة أنحاء أوروبا تقريباً . وقد رجعت الآن إلى أرض الوطن خالي الوفاض نادماً على كل شيء وأنا محبط أشد الإحباط . وقد أفنيت زهرة عمري وشبابي متسكعاً في الأزقة والبارات مضاجعاً النساء و معاقراً الخمرة وقد صرت كهلاً يائساً كل الياس . وكنت و ما زلت ألقي باللوم على والدي وأعتبره سبب كل المآسي والإخفاقات التي وقعت منذ البداية وحتى النهاية معتزاً بمكتبته ذات الكتب الصفراء المنقولة عن الأجداد والتي تجاوزها الزمن و متمترساً في مخدعه حيث يحيي كل ليلة خميس سهرة صوفية مع رقص ميلوي ونقر على المزاهر والدفوف استجلاباً للنشوة الصوفية وتقرباً من الحضرة.

كان قاسياً في تربيتنا وكان يوبخني أنا خاصة لأنني كنت أناقشه في قرارات اتخذها وكنت في تلك المرحلة أعدها خطأ . كنا ثلاثة ذكور.

وكنت أوسطهم ولم يرزق والدي بإناث فلم تكن لي أخت وكم تمنيت ذلك . ومن هنا فقد بدت لي المرأة وكأنها لغز محير ، أو طائر جميل كم تقت إلى حيازته واقتنائه لأفك شيفرته واطلع على نقاط قوته وضعفه . كان. أخي الأكبر محمد يحمل اسم جدي وكان سكونياً لدرجة الخنوع . مطيعاً لأبيه لدرجة العبودية سهل الانقياد في حياته إلى درجة أنه يحتاج إلى التوجيه دوماً ويحب تلقي الأوامر. كان أبي يحبه لهذه الصفات لأنه لم يكن ليحب يوماً من يعارضه فهو دكتاتور بطبعه عنيد لا يعترف بخطئه واذا أثبتت الأحداث والوقائع خطأ قراراته يمضي سادراً في غيه باحثاً عن مشجب ليعلق عليه أخطاءه.

وكانت أمي على النقيض فهي حنونة وديعة لكنها مستكينة تجاريه في عنجهيته خوفاً لا اقتناعاً وتقية لا إيماناً ، و لذلك أحببت المرأة من خلال أمي وأحببت مدرساتي الكبار كعشيقات يشبهن أمي ، وكنت أتخيلهن في مرحلة المراهقة بحالات حميمية معي . ولم أكن لأتخيل يوماً أن أقيم أية علاقة مع صبية أصغر مني أو بعمري على الأقل وكانت معلمة الرسم في الصف العاشر جميلة أنيقة جذابة تكبرني بثمان سنوات تهتم بي لموهبتي وأعشقها دون أن تدري لكنها في بعض الأحيان وكأنها تدرك ذلك فتقول لي ونحن وحيدين في المرسم:

ناصر لماذا تحدق بي هكذا هل لأني أشبه أمك ؟ وكان سؤالها الذي يحمل الجواب في ذاته حلاً اسعافياً لارتباكي

لكنه لم يستطع إزالة حمرة الخجل من وجهي وكأنني ضبطت متلبساً.

كنت موهوباً في الرسم وشجعتني معلمة الرسم خاصة واسمها نادية على هذه الهواية وعرفتني على رسامين كبار في دمشق ، جعلت منهم مرجعيتي في تنمية هوايتي هذه . وتطور الأمر مع نادية فدعتني إلى صالة الفارابي في أبي رمانة وهي مركز أقامته الدولة لتنمية المواهب وخاصة الرسم . وهو دار عربية قديمة فيها حديقة واسعة ويستثمرها عن طريق أمانة العاصمة مستثمر فتح فيها مقهى و كافتيريا..

وكنا في بعض الأوقات نلتقي أنا ومعلمتي نادية نبحث في الفن والرسم وشؤون الحياة . ومرة تجرأت وقلت لها.

احبك يا معلمتي واتمنى لو نجلس كل يوم معا فحديثك يسحرني

قالت:

أنت بالنسبة لي شاب مميز موهوب ولا أنكر ارتياحي لك لكن بيني وبينك عقد من الزمن

قلت:

-ثمان سنوات فقط

ضحكت وقالت:

-ليست قليلة ولكني أحبك كما لوكنت أخي وربما أحبك أكثر في المستقبل.

ومرة دعتني الى بيتها وكانت أمها معها وأعطتني درساً في مزج الالوان ثم خرجت الأم إلى السوق وراودتني رغبة في ضمها وتقبيلها ولاحظت هي اشتعال النار في عيني فلمست يدي ووضعت راحتها على كفي وعلقت عيوني بعيونها فضمتني اليها وتناولت شفتيها وغبت في قبلة كانت أول قبلة في حياتي والأحلى فلقد أدخلتني في خضم المراهقة التي استمرت طويلاً معي.

قالت لي مرة:

أتعرف يا ناصر كيف يتولد الحب ؟

- لا

إن الاحترام والاهتمام أول إرهاصات الحب وهما البرزخ الذي نعبر منه إلى النعيم والفرح العظيم الذي هو قدر حياتنا ، فإذا أحسنا رعايته حلق بنا إلى سدرة المنتهى ، وإذا أهملناه خسف بنا إلى قاع الجحيم.

ومنذ ذلك اليوم صرنا نلتقي مراراً وأصبحت هي مرجعيتي أصارحها بكل أفكاري وخيالاتي وعلاقتي بأهلي . لقد أصبحت أمي الثانية ، بل حبيبتي.

تكرست عندي هواية الرسم وأبدعت في لوحاتي وأدهشت رواد المراسم والمحترفات واكتسبت بعض الشهرة.

ولكن ذلك لم يرق لوالدي الذي امتعض من كل تصرفاتي

و قال:

كل نشاطاتك في الرسم ترهات وغثاء أحوى لا يطعم خبزاً اعتن بدراستك لتكون طبيباً في المستقبل تجمع ثروة من مهنتك . و سأرسلك إلى بلد أوربي لترجع باختصاص هام كالجراحة مثلاً.

ولما سألت معلمتي التي أصبحت حبيبتي ومرجعيتي كما أسلفت قالت:

اذهب إلى ايطاليا وادرس فن الرسم أكاديمياً وترجع فتصبح رساماً عالمياً أنت موهوب وأبوك يحاول خنق موهبتك فليس المجد بالمال فقط إنما بالتفوق والابداع . قل لأبيك أنك ستدرس الطب وفي ايطاليا تحول إلى دراسة الفن والرسم..

اقتنعت بالفكرة الصادرة من حبيبتي ومعلمتي ومرجعيتي لكنه كان أول درس أتعلمه في الكذب و المراءاة.

لاحظت شك أبي المتزايد في سلوكي وتخيلت أنه يعرف ما أنوي فعله ولكن ذلك كان وهماً . وسألت رئيس المركز الذي نرتاده باستمرار وقد أصبح صديقاً رغم فارق العمر عن رغبة والدي في إرسالي إلى الغرب لدراسة الطب وأنني أرغب في دراسة فن الرسم في ايطاليا فأفادني بما يلي:

إن الدكتور رئيس المركز قد عاش في فرنسا بالطول والعرض ويعتبر أن التجربة والخبرة ضروريتان للإبداع وعلى الإنسان أن يجرب كل شيء، وكان يقول (للوصول إلى الأرض الخضراء قد تضطر لعبور المستنقعات ومعاشرة التماسيح.

أعجبتني الفكرة بسرعة وبدون ترو ، فلم لا أختبر الحياة البوهيمية وأعبر المستنقعات وأتحدى التماسيح.

غادرت الوطن شاباً وكلي أمل في حياة بوهيمية تفرخ العبقرية ، وأملي أن أصبح رساماً كبيكاسو أو سلفادور دالي بل ربما كان حلمي أن أكون أعظم منهما من خلال حياة بوهيمية اتوسل بها إلى التفرد وأكتب مع الخالدين مثل ميكل أنجلو وغيره ممن ظهروا في عصر النهضة . لكنني رجعت كهلاً فاقداً الأمل في إنجاز أي شيء فيما تبقى لي من سنوات عمري . كنت أحلم بأن أغزو الغرب بإمكانيات اعتقدت أنني أملكها وبحيوية وطاقة قوية كنت أحلم أن أبددها في المنجزات والعلم وإيجاد مدرسة جديدة في الرسم

وأن أغزو واجتاح الحضارة الغربية بطولها وعرضها و بكل ما فيها من حياة وتطور وعلم ونساء أيضاً لمجرد أن أخرج على أبي شاقاً عصا الطاعة.

لكن الحلم شيء والواقع شيء آخر والحياة لا تعطيك إلا إذا أخلصت لها و فهمتها ولم تخادعها فتمكر بك وترديك وإن عليك ألا تأخذ بنصائح الآخرين مهما علو وإن عليك أن تضع منهجك الخاص بك.....

لم أضع المنهج الخاص بي ولم أدقق أرضية العمل وأخذت الكلام على عواهنه ولم أبحث عن المنهج الذي يوصلني إلى ذلك الحلم و الأمل والتمنيات لا يكفيان ولا يشكلان منهجاً، والأمل بدون عمل لا يعول عليه

إن الحياة لا تعطيك ما تتمنى وتأخذ منك حلمك ووقتك وتخدعك المخيلة بأوهامها وأحلامها فتجد نفسك في دائرة اليأس يلفك الإحباط والقنوط. فما زال في العمر بقية ولو بلغت الستين من العمر.

لم تنقطع المراسلات مع نادية وتبادل العواطف ولكنها بمرور الزمن قلت وآخر رسالة كانت:

لقد تزوجت وأتمنى لك حياة سعيدة لا تلمني كل ما كان بيننا صداقة جميلة.. وداعاً يا صغيري.

لم أرد على رسالتها التي دمرت أول حب في حياتي ، وانقلب الحب إلى كراهية لأني اعتبرت ذلك خيانة وقلت لنفسي:

انتظري يا نادية سأخونك مع كل صبايا روما نظرت من النافذة البلورية الصغيرة من مكاني في الطائرة فاعترتني قشعريرة وأصابني الوجوم والاندهاش وفرح خفي قد يكون سببه العودة إلى الجذور . ومن جانب آخر شعرت بوخز في الضمير تجاه وطن غادرته منذ ثلث قرن لأهرب من خدمة الوطن ، نعم تركته في لحظة هو بحاجة إلي فيها وقد

تعرض لهجمة خارجية ولم أعطه حقه كما يجب وهذا نوع من قلة الوفاء .. وقلة الوفاء مدخل يؤدي إلى الخيانة وربما كان الجزاء من نوع العمل لذلك أهملتني حبيبتي ثم خانتني مع أنني أخلصت لها وعشقتها وأخذت بمشورتها وها أنا الآن أعود لا لأطلب الصفح والغفران . بل لأعرف غريمي وأسعى للانتقام منه فهي حبي الأول والحب الأول لا ينسى أبداً.

قالت المضيفة:

شدوا الأحزمة سنهبط بعد قليل في

مطار دمشق الدولي

..واهتز قلبي وهاجت عاطفتي التي كانت في سبات .. لقد عدت إلى مستقري ومسقط رأسي كيف حال الوطن الآن ؟ هل تغير بشكل جذري أم كان تغيره بطيئاً كسير السلحفاة ؟ هل تطور كما أرجو ؟ أم أن التطور لم يصبه إلا بالقليل النادر ؟ وما حال البيت والأهل بعد رحيل الأب الذي كان يأمل أن يعود ابنه بعد سنوات قليلة طبيباً وليصبح مشهور أبيشار إليه بالبنان.. لكن ابنه كذب ودرس فن الرسم والتصوير وعاد خالي الوفاض بعد أن أنفق مال أبيه في الملذات المحرمة وغير المحرمة وكان الأب كريماً و مخدوعاً لم يبخل على ابنه طيلة حياته فالجعالة الشهرية كانت تصل في وقتها غير منقوصة ... يا للعار مات ولم يعرف الحقيقة وظل مخدوعاً...

مرت الأيام وتوفى الأب فأخذ الأخ دور الأب فى الإرساليات المادية من استحقاقات الميراث لأخيه وكان ذلك يفوق ما كان يرسله الأب بأضعاف فزاد الدخل وازدهرت الموبقات ودخلت الحياة البوهيمية من أوسع الأبواب واستمرت البحبوحة والعيش الرغيد وتواردت إلى خاطري ذكريات الوداع ومشاهد اليوم الأخير قبيل سفري إلى الغرب وقبل أن أغادر إلى ايطاليا لدراسة الطب كما أراد والدي ولدراسة فن الرسم والتصوير كما أردت أنا وأرادت حبيبتي نادية التي خانتني فيما بعد بكل سهولة وتلقائية لأعمل إذن

بنصيحة مدير مركز الفنون وأغرق في مستنقعات البوهيمية نكاية بالجميع ولتصهل خيول الشهوات في البراري الشاسعة..

كم كانت نصيحة مدير المركز مؤثرة في حياتي وفي سقوطي كانت أهم توصيات والدي لي قبل المغادرة أن أحذر النساء في الغرب ، فأكثر من حسب رأيه مومسات وأن قليلاً منهن صالحات قانتات مستر شداً ببعض مقولات التراث ومنها:

إني أخاف عليكم من النساء فإنها فتنة بني إسرائيل(

أو قوله:

إياكم وخضراء الدمن .. وهي المرأة الجميلة في منبت السوء(

كان والدي متديناً قليلاً بل لنقل متصوفا لكنه تصوف من نوع خاص فهو إلى حبه للتصوف أضاف حب المال ومزج بينهما وهما صفتان متناقضتان لا تجتمعان لكن والدي المزدوج في السلوك والتفكير حسب ما كنت ارى يومئذ استطاع أن يجمع بينهما بطريقة مبررة أقنع بها نفسه ، ورغم أنه كان قد حفظ من أشعار ابن الفارض وترنم بها هو وأصدقاؤه وداروا بلباس المولوية إلا أنه أيضاً من خلال متجره كان يعرف كيف يعد فاتورته وكيف يخدع مأمور الضرائب ويقنعه بضآلة المبيعات رغم ازدهارها في الواقع إذن هو مراء ومزدوج وهو ليس وحده في ذلك بل هو في الحقيقة شأن معظم التجار ، وإذا لم يقتنع المأمور كان يلجأ إلى رشوته ويبرر ذلك له لتلطيف الجريمة

هذه الاكرامية ثمن فنجان قهوة وكانت عنده مكتبة ضخمة لا يقرأ ما فيها إلا نادراً ولم يشجعني على قراءة هل كان اقتناؤها من أجل ما فيها الديكور ؟ أم أن كتبها كانت هدايا من أصدقائه ؟ إنها كتب صفراء ليس فيها جديد إنها كتب نقل لا كتب عقل.

كانت تضم صنوفاً متنوعة من المعارف ومن كتب التراث الصفراء المجلدة تجليداً أنيقاً مزخرفاً ومذهباً . وكان إلى جانبها ومن ضمن المكتبة مخدع للتأمل

وللقاء بعض الأصدقاء القلائل الذين كانوا يشاركونه حب التصوف والرقص الدوراني الذي نشأ و نما في زمن مولانا جلال الدين الرومي وكانوا يعقدون حلقات الذكر وضرب الشيش والمزهر وبعض الحركات الأخرى التي تقترب من الشعوذة وينسبونها إلى الدين والتصوف.

كنا نسكن في حي باب توما ونعيش عيشة التألف والمحبة مع الجيران نعيد معهم أعياد الميلاد ويصومون معنا بعض أيام رمضان. كانت الإلفة واضحة والمحبة ظاهرة وكنا نفتخر ونقول لهم إن زوجة النبي محمد (ص) كانت قبطية وأنجبت له أولاداً. نعم كان زمناً جميلاً جاء فيما بعد من حاول القيام بالفتنة مدفوعين من الخارج لكنهم فشلوا.

وكان يقول لي إذا عدت يا بني من ايطاليا طبيباً فستتهافت عليك الصبايا تهافت الذباب على بقعة عسل ، ولا أدري لماذا كان يشبههن بالذباب مع أن المرأة في نظري هي من أروع المخلوقات السحرية الغامضة على الأرض كما أنها من أشد المخلوقات شراسة إذا أهين كبرياؤها وهي تتمتع بكيد عظيم كما كان يقول أبي وكنت اعتقد أنهن لسن بذات الصفات الخبيثة التي يذكرها ولا يجوز التعميم ، فهن نتاج تربية الرجال والبيئة والموروثات ولا ذنب لهن في كل ما الصق بهن من تهم عبر العصور من دونية أو نقص في القدرات . وقد أثبتت المرأة جدارتها وقوتها وعظمتها في الغرب المتحضر والشرق المتنور لكنها في بلاد التخلف ظلت مشرنقة بالتابوهات والنظرة الدونية ولم تتغير إلا قليلاً وظلت شهادتها بنصف شهادة في القضايا الشرعية وفي الميراث كذلك.

يرتبط اسم لوليتا بالفتاة الصغيرة المراهقة التي لا يتجاوز عمرها السادسة عشرة والتي أحبها رجل كهل طاعن في السن لأسباب عديدة آخرها الحب وقد يذهب هذا المحب في عشقه للوليتا إلى درجة الهوى والتهور فيضل ضلالاً مبيناً وقد يقوده ذلك إلى الجنون فينفذ لها رغباتها ونزواتها وحتى المستحيلة منها وقد يقوده ذلك إلى أن يفقد وقاره وهيبته .

ومن حسن الحظ بل من سونه كذلك أنني عشت الحب في بداية حياتي في روما بحب الفتيات الكبار ولنقل الناضجات اللائي تعرفت عليهن من خلال المحترف وكن بعمر نادية وكان ذلك بمثابة التعويض عن امرأة تكبرني بسنوات عشقتها حتى الثمالة ثم خانتني.

تعرفت على صديق ايطالي وهو رسام عجوز صادقته لأستفيد من خبرته . وقد أحب فتاة في السادسة عشرة من عمرها كان يرسمها كل يوم ويمارس معها الحب بهوس وجنون . كان يكبرها بخمسين سنة على الأكثر ولكن أداءه كان كأداء الشباب وقد ذكرني بأفعاله وسلوكه برواية رائعة صدرت للروائي الايطالي البرتو مورافيا بعنوان السام وذلك في ستينات القرن الماضي وقرأها ذلك الجيل الذي أنا منهم وقد أعجبت بها ايضاً وكنت أظن أنها من نسج الخيال لكن صديقي العجوز أثبت لي بسلوكه واقعيتها وأنها تحدث في كثير من المحترفات في ايطاليا وغيرها فكان يمارس الحب معها في جلسة الرسم مرتين أو ثلاثاً كما أخبرني كانت صغيرة و اسمها لوليتا ولم أكن في البداية لأهتم للأمر كثيراً ولم يخطر في بالي حينذاك أنني سأتحول في كهولتي من عشق النساء الناضجات إلى عشق المراهقات وأن لوليتا ستعود إلى حياتي مجدداً طاردة حبي للكبار . وقد يكون لخيانة نادية دور في ذلك... و كنت أظن أنني أعاني من عقدة أوديب بحبي للكبار اللائي يشبهن أمي.

وقد قرأت كل ذلك في كتب علم النفس التي أولعت بها في مطلع حياتي وحسب نظرية فرويد في الجنس لكن تبين فيما بعد أن معاملة أبي الخشنة وكرهه لي هو الذي دعاني إلى الوقوف إلى جانب أمي في وجهه . وكان لخيانة نادية دور في انقلاب أفكاري مائة وثمانين درجة إلى الجهة المقابلة وهي عشق الفتيات الصغيرات عندما بدأت برسم الموديلات العارية اقتداء بالرسام العجوز جاري ومن قبله كتاب السام لألبرتو مورافيا الذي أعجبت به أيما اعجاب والذي شجعني على أن أفعل ما كان يفعله ذلك الرسام العجوز. وكأن لوليتا الأسطورة تتكرر عبر الزمان والمكان وتتكيف مع الأوقات والبيئة والأشخاص لتظهر في كل مرة بشكل جديد وبمأساة أكبر إن عودة لوليتا المراهقة قد تفاجئ أي منا في زمان غير متوقع بحب من نوع غريب غير متوقع غير متوازن أو متكافئ . صحيح أن الحب لا قانون له ولا يعبأ بالفوارق ويتجاوز العيوب فتصبح فضائل

لكن ذلك ليس بشكل مطلق و ما يزال كل حب محافظاً على القه وصعوده ، لكنه قد ينهار كحائط رملي أصابته أمواج عاتية متلاحقة لينحدر بعد ذلك إلى الحضيض وينقلب إلى كره ، وقد يدخل في طور المأساة إذا زال الاحترام والاهتمام أو ظهرت بوادر الخيانة والنكوص .. الحب طلسم وسحر مبهم عصي على الفهم والتفسير والتأويل.

بعض الفلاسفة والمفكرين قالوا أن للحب عمراً ففي أحسن حالاته وأفضلها لا يعمر أكثر من ثلاث سنين ثم يتلاشى ويصبح تألفاً أو وظيفة في مطبخ أو نسياً منسياً أو مهجوراً في فراش بارد أو ينقلب إلى كره لأن الكره هو الوجه الآخر للحب وبعضهم يقول أن الزواج يقتل الحب وأن الاعتياد ينهيه لكن المؤكد أن الحب عند لوليتا لا عمر له ولا زمان ولا مكان وفي نظر لوليتا هو كهل على شكل ذبابة وقع في شرك العنكبوت ينتظر الموت . وهو في نظره أنه مرحلة كريستالية وأن حبيبه ملاك هبط من السماء . لكن المؤكد أن العجوز المحب للوليتا قد ينتهي حبه إلى الجنون أو الانتحار أو الموت

ومع ذلك لكل حالة استثناءاتها فقد قيل أن شارلي شابلن قد تزوج وهو في الستين من صبية كانت في العشرين ودام حبهما طويلاً وأثمر...

ومن خلال دراستي في روما تعرفت على لوليتا المدهشة الناعمة اللعوب الشهوانية بدرجة شيطانية لا تصدق . وأحببت أن أمثل معها دور الرسام العجوز الذي قضى منتحراً وهو على صدرها يمارس معها الحب . بدأت معها مشوار الانتحار أو فناء الذات في المحبوب كما يقول المتصوفة ومنهم أبي لعلها كانت مدخلاً إلى البوهيمية التي بشر بها مدير مركز الرسم في أبي رمانة بدمشق في مطلع حياتي والتي عملت على هديها بكل غباء.

مات الرسام العجوز الذي أغوته لوليتا وأدخلته كذبابة في شرك العنكبوت ومن سوء الحظ أنني حللت محل جاري الرسام العجوز الذي ارتحل وأورثني تلك المراهقة اللعوب فوقعت في شرك العنكبوت وتوهمت اني أغرق في العسل.

انتبهت الآن إلى أنني وصلت إلى مكان تفتيش الحقائب في إحدى قاعات المطار فأنقذني الموقف الواقعي الحازم من الغوص في الذكريات وخيالات الماضي الذي مازال ملازماً لي ومسيطراً علي أشد السيطرة على شكل استرجاعات بعيدة أو قريبة . يا الله ما أقوى الحب الأول فكل نساء روما لم يستطعن أن يصرفنني عن نادية رغم روعة لوليتا ونعومتها وظرفها وحلاوتها إن حب نادية قد تحول إلى شهوة انتقام.

-ماذا يوجد في الحقائب ؟

قلت:

-بعض اللوحات والكتب فأنا فنان عدت من روما بعد دراسة وعمل في مجال الرسم والتصوير

تأملني بعين شاكة وبنظرة مريبة لكنه لم يعلق بشيء و لمحته وكأنه يهز برأسه إلى الأعلى والأسفل

وانتهى التفتيش وأخرجت من الحقيبة لوحة تحمل اسمي (ناصر الدرعاوي(

لأن من سيستقبلني بعد خمسة وثلاثين

عاماً لا يعرفني ولا يعرف شكلي الخارجي الذي فعلت السنون فيه فعلها كما أن أترابي ومن كانوا في سني أصبح كل واحد منهم كهلاً أو عجوزاً وأما أولادهم وأحفادهم فلن يعرفوني لأنهم لم يكونوا قد وجدوا على سطح الأرض عندما كنت شاباً فهذه اللوحة لابد منها ليعرفني أقربائي الذين سيستقبلونني وأخي الذي يكبرني بسنوات أصبح في السبعين

من عمره اعتقد جازماً أنه لن يحضر لاستقبالي بسبب أوضاعه الصحية وسيرسل أحد أبنائه أو أحد أحفاده لاستقبالي وتصبح اللوحة هذه من أشد الضروريات للتعريف بالقادم الجديد.

الفصل الثاني

تقدم مني شاب

وقال:

أنا عبد العزيز الدرعاوي ابن أخيك جمال وقد أرسلني لاستقبالك وتوصيلك قال إلى بيت العائلة .. فهلم بنا يا عم ... كل ذلك بسرعة وكأنه في عجلة من أمره.

رحبت به وبادرت معانقاً . بدا لي شاباً غير مبال كثيراً بالحياة غير متحمس لاستقبال عمه الكهل . بادلني ببضع كلمات على سبيل المجاملة وحمل حقيبتين وبقيت حقيبة حملتها و سرت معه وهو يتقدمني قليلاً حتى وصلنا إلى مكان وقوف سيارته.

وضعنا الحقائب في الصندوق وتحركت السيارة بنا باتجاه دمشق حتى وصلت معه إلى بيت أخي جمال بعد ان شاهدت الأبنية الشاهقة والعمارات الناهضة والحياة المتطورة التي لم تكن موجودة يوم عندما وصلت بيت أخي جمال مغادرتي استقبلني رجل عجوز على عكازة . عانقته وخيّل إلى أنه يبكى ولم أدر سبب تلك الدموع هل هي دموع فرح بلقائي ؟ أم هي دموع حزن وحسرة على ما فعل به الزمان وبي أيضاً ؟ وقد أنزلوني بعد أحاديث طويلة وضيافات كثيرة في دار مستقلة هو بيت أبي القديم قيل لي عندما سلموني المفتاح هذا هو بيتك الذي لم يدخله أحد منذ وفاة أبيك وهذه الدار التي كان يسكنها أبوك أصبحت من نصيبك و بما فيها المكتبة والمخدع الذي أوصى به أبوك إليك وتمنى لو

تتحول إلى عيادة وقد وزع الميراث قبل وفاته بشهور من أجل الضرائب و من أجل القضاء على أي منازعة أو خصومة بين الأخوة الوارثين وهي من حصتك . فأضف إلى ذلك أملاكاً أخرى و رصيدك من التركة المحفوظ باسمك في المصرف محسوماً منه الارساليات التي كنا نرسلها إليك بعد وفاة المرحوم.

لم أناقشهم في التفاصيل ولا المصاريف ولم ادقق في الحسابات فالثقة مطلقة ولذلك لن أتعرض لغبن أو تدليس ومن هذا البيت بدأ مشوار الحياة الجديدة لألتقي بلوليتا مجدداً .. لوليتا الخالدة وكأنها بعثت من جديد لتظهر في طريقي الجديدة لكنها هذه المرة لوليتا الدمشقية الصغيرة التي ستحب الكهل العائد من روما بكل موبقاته وحماقاته القديمة.

الفصل الثالث

بين الفينة والفينة وأحياناً بشكل دؤوب تعود بي الذكرى وسيرة حياتي في ايطاليا بعد أن حللت في بيت أبي الذي ترك كل شيء وغادر.. المال والأحلام وذكريات التصوف وأصدقاء الدروشة ورقصة الميلوية وأشياء أخرى أجهلها.

استلقيت على سرير الذكرى ورجعت الى ايطاليا بأقل من لمح البصر .. إلى ما بعد وصولي إلى هناك بأسابيع

استأجرت ورشة للتنظيف وإعادة هيكلة المحترف الذي استأجرته من أرملة رسام عجوز وغيرت الديكور قليلاً.

بدأت الرسم والدراسة معاً واتجهت حياتي نوعاً ما للاستقرار ولكن أكثر لوحاتي كانت مناظر طبيعية للحقول والأنهار والبيوت الريفية ورسمت كذلك الطبيعة الصامتة لكنني لم أركز على رسم الوجوه) بورتريه) أو الأشخاص كما كان يفعل الرسامون الايطاليون ومنهم الرسام العجوز الذي استأجرت مرسمه من أرملته.

في يوم من الأيام دخلت المحترف صبية صغيرة رائعة الجمال قدرت أن عمرها في السادسة أو السابعة عشرة . وجهها ملائكي ببراءة حقيقية أو خادعة متناسقة التقاطيع تلمع في عينيها الزرقاوين مسحة من التفاؤل والابتسام والسحر، علمت فيما بعد أنها كانت تعمل موديلاً للرسام الراحل وتدعى لوليتا.

صافحتني بابتسامة عذبة ويدين ناعمتين كالحرير فدعوتها للجلوس وقدمت فنجانين من القهوة وبدأت هي الحديث شارحة علاقتها بالمرسم وبالرسام العجوز.

كان الرسام المرحوم البرتو غوليني صديقاً خاصاً رغم أنه يكبرني كثيراً وقد تعرفت عليه لأول مرة عندما طلب أن يرسمني في أوضاع متعددة وأنا عارية كانت هوايته رسم أجساد النساء في تلك الأوضاع لكنه عندما عرفني استغنى عن كل النساء اللائي

يعملن كموديلات . قلت:

لماذا استغنى بك عن كل نساء روما ؟

قالت وقد امتلأ وجهها زهواً وانتفض صدرها.

-كان يقول لي : إن جسدي ووجهي لا يتوفران في أي أنثى بكل روما ، وجه ملائكي من الوسط إلى الأعلى وفي القسم السفلي نضوج كامل كما ينبغي لأنثى شهية . وهذا من الصعب توفره في النساء.

هل دامت صداقتكما زمناً طويلاً ؟

سنتان وقد انتهت بموته . قلت:

وهل كان يحبك ويتعلق بك إلى درجة الهوس . وكم كان عمره ؟

عندما عرفني كان في السبعين من عمره وقد بدأت علاقتنا الحميمية بعد جلسة أو جلستين من الرسم وفي أول لقاء حميمي به كان يرسم بعينين تشتعلان شوقاً وشعرت أنه كاد يأكلني بعينيه متصنعاً الوقار والجدية، وبينما كنت واقفة عارية أمامه خرج عن طوره كثور هائج وقد ترك الفرشاة واحتواني بعنف وكأنه مراهق . ولم أمانع أنا في ذلك بل أثرته بشكل لم يكن ليتوقعه

قلت مقاطعا:

لقد أخذنا الحديث ولم أتعرف على اسمك

-اسمي لوليتا وقد تعديت السادسة عشرة . قلت:

فرق السن كبير بينكما ألا تدركين أن الأمر منفر قليلاً.

بالنسبة لي لم يكن الأمر كذلك وعندما كان يغمرني كنت أشعر معه بالحنان

هل هو حنان أبوي أم جنسي ؟

ربما كان مزيجاً من كل ذلك

هل كان لك معه جلسة للرسم في كل يوم ؟

-في البداية جلسة واحدة في الأسبوع ثم ازداد إلى ثلاث جلسات ثم تطور الأمر إلى خمس جلسات وأخيراً أصبح كل يوم.

لكن الإنسان في هذه السن يكون ضعيف الأداء قليل الرغبة.

لا لم يكن هو كذلك كان يمارس الجنس وكأنه ابن الثلاثين وكان في كل جلسة يرسمني لمدة ثلاث ساعات يقوم بفعل

الحب مرتين أو ثلاثاً خلالها

هل كان يتعاطى المنشطات ؟

لا أظن ذلك . على الأقل لم أره يتعاطى شيئاً أمامي.

-هل كان يهذي أو يقول شيئاً عندما يمارس معك الحب ؟

نعم كان يقول أحبك .. أعبدك ثم يبكي كطفل.

ماذا تظنين أنه كان يشعر وما الذي يدفعه إلى البكاء ؟.

لا أدري ربما شوقه الزائد إلى جسدي أو لفرط الحب أو لبراعتي في إثارته.

شعرت يومذاك أنها قد ضجرت من أسئلتي التحقيقية التي أمطرتها بها ورأيتها تتململ لتنهي هذا الموقف بسؤال:

هل أتعرى الآن لتقوم برسمي . ؟ قلت:

لا .. لا أجد الآن الرغبة في الرسم ربما في لقاء آخر.

ورأيتها تنهض وقد ارتج ثدياها خلف كنزتها الخضراء الداكنة ولاحظت عند تحركها واستدارتها الجانبية ما قالته لي بأن قسمها السفلي من جسدها مزدهر يشبه جسد امرأة ناضجة في الثلاثين ثم صعدت بنظري إلى القسم العلوي فرأيته يحمل وجهاً ملائكياً بريئاً

خرجت من المحترف وكأنها بمشيتها تقوم بحركات إغراء محركة ردفيها

بطريقة مغرية مصطنعة لتجرني في يوم من الأيام إلى مثل تلك الجلسات التي كانت تمارس فيها الرسم و الحب في ذات الوقت مع الرسام العجوز.

لوليتا يا طاغية الرجال الطاعنين المتعلقين بالحياة الهاربين من الموت الواقعين بين يديها بموت أدهى وأمر كذبابة في شبكة عنكبوت تتجرع موتها ببطء.

قلت لنفسي : سأرسمها لأجرب لأول مرة رسم الأجساد الصغيرة العارية وقد أكتشف فيها شيئاً آخر هو ثورة الجسد الأنثوي المتميز القوي العدواني القاهر للرجال وقد تبخر حبي لمعلمتي نادية بل أكاد أقول أنه انقلب كرهاً . هي التي أرسلتني في هذه الطريق ثم تزوجت من زميلها وقد فقدت ثقتي مبدنياً بالنساء الناضجات فلأتحول للصغيرات اللواتي قيل فيهنّ : إنهن أعذب أفواهاً وأنتق أرحاماً

استلقيت على الأريكة مفكراً ومخاطباً نفسي:

(ناصر الدرعاوي أين ستحط بك رياحالترحال وفي أي حضن سيستقر بك المقام وتنعم بحياة بوهيمية تقودك إلى القمة كما قال لك الدكتور مدير المركز في أبي رمانة بدمشق

وعادت بي وصية والدي يوم غادرت دمشق لأول مرة من مواعظ ونصائح وما سرده علي بشكل مختصر عن قصة عائلتنا التي هاجرت من درعا إلى دمشق منذ أكثر من مئة عام وحافظت على اخلاقها ونقائها حيث عمل أجدادنا في البداية بأعمال متواضعة ثم ترقوا في عملهم وأصبحوا أكثر فاعلية وأعظم وجاهة وكأنهم يعرفون ماذا يريدون وأن التزامهم بالعمل الجدي والتقوى والهدى على حد تعبير والدي قد اوصلهم إلى ما وصلوا إليه . وكان سكان دمشق الراسخون في القدم والذين خدم بعضهم الولاة الأتراك ونالوا من فتات السلاطين يتندرون على أهل درعا البسطاء القادمين للعمل في دمشق أنهم أقل منهم تحضراً مع أن الكثير من المفكرين والاداريين والقادة قد ظهروا من هذه المدينة الوادعة وأبدوا ذكاء خارقاً وعملاً نافعاً.

يومذاك قال لي والدي:

الأمكنة لا تعني شيئاً يا بني وقد يوجد في نفس المكان الواحد الخير والشرير إن عمل الإنسان العظيم المثابر ذا الهدف الرشيد هو من يعطي المكان قدسيته واهميته وأنه يمكن أن تبدع وتتفوق من أي مكان في العالم بل وتخلق الجنة وأنت في خضم الجحيم كما جرى للنبي ابراهيم ، فالعبقرية لا تحتكر الأمكنة . وفي ذلك اليوم حذرني مجدداً من نساء روما ملقياً علي المواعظ أن لا أسلك طريق الهوى بل علي أن أجد في دراستي وأستفيد من حضارة الغرب ومن علومه لأحصل على إجازة في الطب وأعود.

هل كانت قسوته لتصليبي كما الحديد يقوى بالنار ليصبح فولاذاً أم لأكون جاداً ملتزماً أم كانت هكذا عادة الآباء والأجداد في الزمن الغابر والتي لم توافق ما آلت إليه التربية الحديثة في تطورها واكتشاف مواهب الطفل وتنمية شخصيته ورفع معنوياته وبنائه بدل تهديمه وتزويده بالطاقة الإيجابية بدلاً من الزجر والسلبية ؟ أم هي نوع من المزاجية التي لا تعترف إلا بذاتها وبالعناد المتأصل في الجينات وبتقديس كل ما هو متوارث بقضه وقضيضه على مبدأ (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) وانتشار ثقافة العصا في المدارس والكتاتيب وإيمان الأهل بها حتى انتشرت مقولة (يا شيخي هذا ابني علمه واقس عليه .. لك اللحم ولنا العظم) أي اضربه ولكن بدون أن تكسر عظمه.

نحن جيل الجسر ومفهوم بين مفهومين بل هو شيء من التطور لم يكتمل. نريد من أبنائنا أن ينجزوا ما عجزنا عن إنجازه وإعادة ما خسرناه وما عجزنا عن تحقيقه ليشفوا غليلهم وينتصروا على إخفاقاتهم وليس ما يمنع أن يكون العنف وسيلة هذا الانجاز.. لكننا خلقنا لزمن غير زمانهم.. و لأفكار متغيرة حسب الزمان ، ولا ينكر تغير الأحكام بتغير الازمان . وقفزت بي ذاكرة الاسترجاع البعيد إلى قول مدير المركز في أبي رمانة : (تعلم بالتجربة ولا تخف الخطأ أو الخطيئة وخض المستنقعات لتنفذ إلى الأرض الخضراء على ما في ذلك من كوارث

(حتى نصل إلى الأرض الخضراء لابد من الخوض في الوحول والتعامل مع التماسيح وحتى الذئاب قلت لنفسي : التجربة ستثبت ذلك.

الفصل الرابع

اتصلت بلوليتا وكانت قد أعطتني رقم هاتفها منذ الزيارة الأولى كما كنت قد أعطيتها رقمي وطلبت منها أن تأتي إلى المرسم من أجل المثول أمامي لأرسمها عارية لأنني قررت البدء برسم أجساد النساء العاريات

قالت :

إن عندها وقتاً فائضاً يقدر بحوالي أربع ساعات وأنها ستوافيني بعد ساعة من الآن.

جلست مستلقياً على الأريكة وأنا أفكر بها كيف كان الرسام العجوز يستقبلها بلهفة وينتظر مجيئها لا ليرسمها بل ليمارس معها الحب . وكان مثولها تبريراً واهياً ظاهرياً غير ضروري فتحضنه بطقوس مدروسة هي جزء من عمل أتقنته إلى درجة الاحتراف قد يكون بعيداً كل البعد عن الحب الحقيقي و إلا كيف يمكن لفتاة مراهقة في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة أن تعاشر رجلاً كهلاً تلاطفه وتتعلق به وتقول له كلاماً معسولاً ويقابلها هو بأحلى الكلام قائلاً (أحبك) وكيف يمكن لها أن تقول له أيضاً وأنا أحبك) ؟ هل هو شبق شاذ اعتادته وأدمنته أو نوع من المجاملة السمجة أو المبالغ فيها من قبلها غايته المصلحة . تلك المجاملة التي لابد أن تكون إلا على حساب العاطفة الصادقة التي لا تتحقق إلا بوجود التكافؤ والتوازن في كل القدرات . ولكني أرجع لأقول إنه ليس للحب مقاييس أو قواعد أو قوانين وليس له معادلات وقد يقع بين كهل ومراهقة إذا كان هذا الكهل استثنائياً أو ذا ميزات تحبها العاشقة المفتونة . وفي كل الأحوال هو استثناء أو حب من نوع خاص على الأقل ، ولكن العاشق الكهل وقد ظن أنها قد أحبته فعلاً فانخلع فؤاده لهذا الحب وتعلق بها إلى درجة الجنون أو الانتحار، أما هي فقد احتفظت بخطوط الرجعة والانكفاء رغم استمتاعها بنوع شاذ من الحب حيث يتذلل العاشق بلهفة للمعشوقة الصغيرة ، وكل ذلك يدعم غرورها ويثير كبرياءها.

مضى الوقت سريعاً وأنا أسبح في تلك الخيالات والأوهام محاولاً تفسير كنه مثل تلك العلاقة التي يصعب تبريرها أو تفسيرها.

رن جرس الباب قمت لأفتح .. بسرعة دخلت وعانقتني وهي تطبع قبلتين على خدي ثم تابعت وكأنها تعرف المكان منذ زمن بعيد وهي فعلاً تعرفه منذ أيام الرسام العجوز، ألقت بحقيبتها على الأريكة وبدأت بخلع ثيابها ساحبة كنزتها الخضراء الداكنة إلى الأعلى لتتخلص منها وقد علقت القبة الضيقة عند رأسها فتخلصت منها بحركة سريعة قوية فانداح الثديان المترعان من حمالة الصدر فرمت كنزتها على الكرسي وأمسكت

بعدها بسحاب تنورتها ساحبة إياه فانزلقت التنورة إلى الأسفل كاشفة عن ساقين من الكريستال الأبيض الناعم ثم ركلتها برجلها وتخلصت منها وبدا جسمها الآن أكثر وضوحاً مبرزاً مفاتنه وثناياه وتضاريسه الرائعة . من الأسفل امرأة ناضجة تضج بالأنوثة والاشتهاء ومن الأعلى مراهقة لم تدخل طور النضوج الكامل ، عليها مسحة طفولية ملائكية وتابعت لوليتا خلع ملابسها الداخلية الأكثر حميمية والتصاقاً ببشرتها بدءاً من حمالة صدرها وسروالها الداخلي وبدت الآن عارية تماماً وأنا في حالة من الذهول والتحديق ثم التفتت نحوي قائلة:

أين الحمام ؟

هو ولاشك تساؤل العارف لأنها ولاشك تعرف تفاصيل المحترف بشكل دقيق فأشرت إليه فسحبت منشفة كانت معلقة على المشجب وقالت:

-دقائق وأعود

وتعجبت بانبهار من ذلك الجسد الذي شد الرسام العجوز وأقنعه بأن يستغني بها عن كل ما سواه من نساء روما وقلت لنفسي : معه كل الحق فهذه الصبية متميزة الجسد بشكل واضح ، وعندما خرجت من الحمام كانت تلف المنشفة على وسطها وأسفل سرتها ثم قالت لي:

أين أقف ؟

أومات إليها أن تقف على زاوية يسلط عليها الضوء قوته بكثافة مبهرة فانصاعت لتظهر تقاطيع الجسد الطري الفتي البض واضحة بكل تفاصيلها وخطوطها

اعترتني طاقة من الإثارة وموجة اهتياج لم أعهدها من قبل و ألمت بجسدي رغبة شديدة في امتلاكها لكنني تماسكت بصعوبة فخبأت تلك الطاقة إلى وقت قريب وبدأت أتظاهر بالرسم كانت والضوء يغمر جسدها تبدو كأفروديت وقد خرجت لتوها من البحر يتلألأ الجسد الندي الطري مع الضوء فتشتعل الرغبات ويثور بركان الشوق طلباً للشهوة والنشوة . وجدت نفسي وقد توقفت عن التظاهر بالرسم واقتربت من الجسد الحار الذي يدعوني بقوة إلى اجتياحه ولكن بصمت أوضح من الصراخ وقد شعرت بوهجه وبالرائحة النفاذة التي حثت جسدي على الاقتراب لأتنفس أنفاسها ولأشم رائحة جسدها و عبير صدرها الذي لا يقاوم وبالطاقة العدوانية والتحفز كنمر تم الانقضاض بقوة على الفريسة لقد جاء دور فعل الحب

ووجدتها وكأنها تنتظر تلك اللحظة بفارغ الصبر فاندفعت نحوها لأغمرها بحممي كبركان يجتاح السهول والوديان والهضاب وكل تضاريس جسدها . وعندما التصقت بها لم تعارض بل وجدتها تستلقي على الأريكة لتسلمني جسدها الحار بكل سهولة وهكذا خضت اللعبة معها بمهارة وحاولت امتلاكها بكل ما أستطيع وهي أيضاً أفهمتني أنها ليست ماهرة فقط في هذا النشاط من الحياة بل إنها خبيرة أيضاً وتعرف مكامن اللذة وأسرارها وعندما خرجت منها وقد أخذتها حتى وامتنان النهاية كانت تعض بأسنانها على شفتها السفلى وتبتسم ابتسامة الظفر والارتياح فعلمت أنها قد نالت حظها كاملاً من النشوة.

أشعلت سيجارتي وتعجبت حين قلت لنفسي : إن رحلتي هذه أروع من أي رحلة في حياتي . بل إن حياتي الحقيقية قد بدأت .. هل هذه هي البوهيمية المنشودة التي وجهني إليها دكتور المركز الفني في أبي رمانة كمرشد وخبير ؟ والحق أن مأساة حياتي قد بدأت وأن مشوار الألم قيد التنفيذ.

مر الوقت سريعاً واستعدنا النشاط وقد رغبت هي وأعجبت بجسدي الفتي القوي وحاولت أن أخذها للمرة الثانية كما كان يفعل الرسام العجوز لكنني وجدتها تضع

يدها على صدري لتقول:

يكفي هذا اليوم .....

تكررت اللقاءات وبدأ الحب في قلبي يزداد بدرجات كبيرة و بمتوالية هندسية وكان العلاقة الجسدية تنمي الحب والعاطفة وتصقلها جميعاً بوقت واحد فيكتمل الحب بشقيه الروحي والجسدي إلى أعلى الدرجات. ويمضي الوقت سريعاً والزمن كلمح البصر وتتوالى اللقاءات وتترسخ العلاقة لتصبح أقوى من عادة مستحكمة. وهكذا تمر الأسابيع والشهور وحتى السنوات فلا تنتهي الرغبة لأنها تتجدد كل يوم كنبع لا ينضب . ولكن لكل شيء نهاية ، وقبل مرور ثلاث سنوات وجدت أن حبها بدأ يبرد ويخف إواره ولم تعد تهتم بي كما في السابق وأنني لم أعد أثيرها وأروي رغباتها كما كنت أفعل أو كما كان يفعل الرسام العجوز من قبل . وبدأ الشك يساورني بأن شخصاً آخر قد اقتحم قلبها وتمركز فيه وعندما كانت تغادر كنت أقول لنفسي أنني لم أستطع امتلاكها الامتلاك الكامل كما كان يجري سابقاً فجربت أن أعرض عليها الزواج لكنها فاجأتني بالرفض

وقالت:

نسيت أن أقول لك أن في حياتي رجلاً آخر قد يتزوجني فلا تتعب نفسك.

وكانت هذه الشرارة التي أشعلت في نفسي نيران الشك والقلق والحيرة والغيرة وكنت قد فكرت بأن أرسل خلفها مخبراً يتجسس عليها وكان لهذا النوع من النشاط في روما وكالات خاصة لكي يراقب الأزواج زوجاتهم أو العكس كي تراقب الزوجات أزواجهن فقطعت علي الطريق معترفة بذلك بكل جرأة وبلا مبالاة . ومع كل هذا الاعتراف قمت بمراقبتها ولكني لم أعثر على طائل وقلت لنفسي : من الأفضل أن ألتقي بها كل يوم وأدفع لها ما تشاء من المال وعندما كنت أغدق عليها الكثير من المال لم تكن لتقبل إلا القليل منه فلم أقتنع بأنها مومس تسعى إلى المال عن طريق الجسد ، وهذا ما حيرني

أكثر واستمرت الحال شهوراً بين أخذ ورد وقلق وغيرة وجدال إلى أن قررت في يوم أنني لكي أحتفظ بها علي أن أنجب منها طفلاً ولما فاتحتها بالأمر رفضت وقالت:

عليك أن تسعى إلى بناء مستقبل مهني لك وأن تصنع اسماً لتصبح رساماً عالمياً ولن يفيدك الولد بشيء.

لقد اعترفت بوجود شخص في حياتها ولكنها كانت تنفي اي علاقة جسدية معه وان كل ما في الأمر هو علاقة مميزة.

وفي يوم من الأيام قرأت أنها وعشيقها قد قضيا في حادث سيارة واذن فقد كانت لوليتا تخونني دون أن أشعر بذلك ورغم حرصي وتجسسي عليها لم أكتشف أمرها لكن الموت كشف كل ما خبأته بحرص شديد . ومنذ ذلك اليوم تولدت عندي وترسخت عقدة الشك في المرأة مهما بدت أنها ملتزمة تجاه من تحب وأصبح ذلك شرخاً في داخلي وأن جميع النساء خائنات أو كما قال شاعر مرة ... وإن تجد ذا عفة فلعلة .. لا يظلم) سأحاول أن أبعد عني تلك الذكريات التي ما خلفت سوى المرارات والوحدة.. هل علي أن أحلم بإنجاب طفل بعد أن أصبحت كهلاً وهل أدخل بيتي لوليتا جديدة لتخونني فتتكرر المأساة وماذا سيقول الناس عني؟

الفصل الخامس

بدأت اعتاد الحياة في دمشق وأتأقلم مع الأجواء الاجتماعية والعلمية والفنية ويوم ذهبت إلى كلية الفنون الجميلة أخذاً موعداً من عميد الكلية بالهاتف الذي حدد لي توقيتاً صباحياً.

كنت متوجساً وعندما قابلته في مكتبه رحب بي ترحيباً حاراً وهنأني بسلامة الوصول والعودة إلى الوطن وكان عنده عدد من الإداريين والفنيين فرحوا للقائي فانتعشت نفسي بالآمال وزال الانقباض . حدثتهم عن الحالة الفنية في ايطاليا وعن أساليب التدريس الجديدة للرسم و للفنون الجميلة وفي البلدان الأوربية التي زرتها ، وقد سروا من شرحي ورحبوا بأي اقتراح لتطوير المناهج أفقياً وعمودياً وأنهم سيستشيرونني في الكثير من الأمور والبرامج الجديدة التي سيعدونها بل أكثر من ذلك قال لي العميد:

سيتم تعيينك وبموافقة الوزير بعد اقتراحي مستشاراً لكلية الفنون الجميلة مع تخصيصك بساعات تدريس في الكلية فرحبت بذلك وكلفت فيما بعد بعدد من الساعات الأسبوعية إضافة إلى تعييني مستشاراً للكلية نفسها . وكان هذا اليوم مصدر تفاؤل لي في حياتي الجديدة وقد بدأت تتضح ملامحها وفكرت بعد يومين أن أضيف إلى أعمالي في الجامعة أن افتتح محترفاً أرسم فيه اللوحات في وقت فراغي وأن أقيم المعارض بين فترة وأخرى وكتبت عني الصحف والمجلات وحتى التلفزيون أجرى معي المقابلات وعرف المشاهدون بنشاطاتي الفنية وبمعارضي الفنية التي اقمتها ، ونصحني ابن أخي بأن أشتري سيارة جديدة فخمة وقد أصبحت غنياً بفضل ميراث أبي وأن أهتم بهندامي مثل الرجال الدبلوماسيين لأنه في الغرب لا يهتم الرسامون والفنانون بهيئاتهم وشخصياتهم وغالبا ما يتعمدون أن يظهروا بهيئات رثة بينما في مجتمعنا فإن للمظاهر قيمة كبيرة وقد أخذت بنصيحة ابن أخي فاشتريت سيارة) اودي (فارهة كلفتني الملايين وملأت خزانتي الواسعة بأطقم وقمصان غالية الثمن ولوازمها وتوابعها وكنت قد جلبت عدداً من الأحذية الايطالية الشهيرة. معي كانت فرحتي بالسيارة الجديدة كبيرة رغم أنني ركبت سيارات في روما من مختلف الأصناف والموديلات ، وسافرت إلى بلدان أوربية بسيارتي الخاصة لكن فرحتي بهذه السيارة كانت مميزة وخاصة أنني وجدت في السيارة

وسيلة رائعة لقضاء الحاجات وتوفير الوقت ووسيلة هامة للخروج بنزهات خارج دمشق ...

وكان رفيقي ودليلي في كل ذلك هو ابن أخي الذي أحب لوحاتي وأحاديثي عن ايطاليا وحتى عن مغامراتي النسائية في تلك البلاد وكنت أقص عليه نتفاً منها واقترح علي في يوم الخميس أن نذهب في رحلة إلى شمال سوريا مروراً بحمص ومصياف وإلى منطقة جبلية ووديان تحيط بها غابات كثيفة . وكان هناك واد يسمى وادي (جهنم) وهو منحدر سحيق على جرف هار فإذا سقطت سيارة من أعلى الجبل إلى وادي جهنم فلن يخرج منها أي راكب حياً ولذلك يحذرون السائقين في هذه المنطقة من مخاطره رغم أن القليل من الحوادث قد وقعت كما قال لي ابن اخي وأردف بأننا سنتابع السير إلى مدينة اللاذقية على البحر لنقيم في (شاليه) أنيق فخم . وهكذا انطلقنا يوم الخميس ومررنا بمدينة حمص العريقة وقد تطور فيها البناء تطوراً سريعاً لأنني كنت قد زرتها يافعاً في إحدى الرحلات المدرسية قبل سفري إلى ايطاليا وانطلقنا من مدينة حمص إلى مدينة مصياف ومنها إلى الغابات والجبال والوديان . توقفت السيارة التي كان يقودها ابن أخي وهو بارع في أصول قيادة السيارات ولم يرد أن يرهقني في قيادتها توقف عند مرتفع وتحته واد يتشكل من انكسار حاد وكان الموقف مهيباً بل مرعباً هذا هو إذن وادي جهنم .

كانت الغابات تكسو الجبال والوديان بحلة زمردية وبكثافة وكانت الطريق الاسفلتية ضيقة نسبياً لكن السيارة توقفت عند فسحة وترجلنا منها لندقق في هذا الوادي الذي سموه وادي جهنم أو وادي الموت كان عميقاً جداً وكان انكساراً انهدامياً قد حدث في زمن ما فشكله وكونه ثم نبتت الغابات والأشجار بكثافة وبعضها معمر وعمره أكثر من مئتي عام وسيكون لهذا الوادي في حياتي المقبلة تأثير عظيم.

تابعنا المسير وتجاوزنا قلعة القدموس باتجاه اللاذقية وأمضينا يومين ونعمنا بالبحر والشمس ثم عدنا إلى دمشق .

ما اروع هذا الوطن الجميل بلد الشمس والغابات والبحر بلد الشتاء الحنون والأمطار الناعمة.

سررت جداً بهذه الرحلة فأنا أحب الغابات والأشجار والطبيعة ، كما هي حالة الفنان.

ووعدت نفسي بتكرار ذلك

الفصل السادس

مضت ستة أشهر على تعييني مدرسا في كلية الفنون الجميلة . لمع اسمي في دمشق كفنان أصيل عريق مخضرم له تجربته ولوحاته في بلدان الغرب وأحبني طلابي وتمتعت بشعبية كبيرة كما أقمت عدة معارض وبعت لوحات بأثمان باهظة واتصل بي بعض الطلاب الأثرياء لأعطيهم دروساً في الفن ومزج الألوان في دارتي . وهكذا لم تمض سنة حتى بدأ نجمي بالسطوع وأجريت معي عدة مقابلات تلفزيونية وكتبت عني المجلات والصحف بغزارة وفخر وتشجيع وعادت إلي بعد يأس الفرحة والأمل والتفاؤل وانعكس ذلك على وجهي وهمتي ونشاطي.

وصادف في أحد الأيام أن دخلت مرسمي صبية تبدو للوهلة الأولى أنها في السادسة عشرة من عمرها تبين فيما بعد أنها في الثامنة عشرة من عمرها ذات ملامح وتقاطيع جميلة ملفتة وقد ذكرتني ملامحها بلوليتا الايطالية التي لم تغب عن ذاكرتي رغم كل الذي كان . لها جسد ناضج ووجه طفولي بريء جميل سلمت علي طالبة مني اعطاءها بعض الدروس لتصقل موهبتها الفنية . وأنها ستنتسب إلى كلية الفنون الجميلة هذا العام . أعجبت بها بل أكاد أقول أنها دخلت قلبي بدون استئذان ، هل هو الحب من النظرة الأولى ؟ وقد قدمت لها لوحة بيضاء لترسم عليها ما تشاء من مواضيع لأسبر و أختبر موهبتها ، وقد انفتح قلبي هذه المرة لهذه الصبية . إنه حب كهل لمراهقة طازجة . هل تعود لوليتا الايطالية لتتجسد في قالب دمشقي له مذاق وطني ؟ هل سيزول الصدأ عن قلبي بعد تلك الصدمات والشروخ نتيجة خيانة لوليتا الايطالية المفاجئ وزواج نادية غير المتوقع؟ وتوقي لمعرفة غريمي والانتقام منه كل ذلك جعل الصدأ يعلو القلب ويغلفه والانكسار يمنعه من تجديد حب مرشح للفشل هل تجلو لوليتا الجديدة ما علق بقلبي من صدا وهل هي قادرة على ترميم الشروخ التي أحدثتها الخيانة وقلة الوفاء ؟ الأيام ستكشف ذلك انتهت الصبية من رسم اللوحة التي طلبت إليها أن ترسمها بشكل مبدئي.

كانت لوحة رائعة مدهشة تنم عن موهبة وكانت منظراً طبيعياً لجبل وواد يشبه وادي جهنم وغابة فيها الأشجار الباسقة الكثيفة . بل إنه وادي جهنم نفسه.

قلت لها:

هل زرت منطقة تسمى وادي جهنم ؟

قالت:

وأين تكون هذه المنطقة ؟ لا لم أزرها

وتعجبت كيف خطر في بالها أن ترسم لوحة قريبة الشبه جداً بغابات مصياف ووادي جهنم بالذات هل هي نبوءة للنهاية التي سيؤول إليها الحب المنتظر سألتها عن اسمها .
قالت:

قمر . قلت:

إنك تشبهين القمر المنير في كثير من الجوانب أقلها نضارته وجماله لكنني أفضل أن أطلق عليك اسماً غريباً

سمعته في ايطاليا لاسم صبية ينادونها لوليتا أحببتها ثم خانتني.

ضحكت وقالت:

ليس عندي مانع ومن الآن أنا لوليتا ولكنني لن أخونك.

كانت تزورني في الأسبوع ثلاث مرات وفي كل جلسة كنت أعلمها الرسم بشكل منهجي أكاديمي وأصقل موهبتها بكل حرفية وبكل ما تعلمت من أصول الفن وإبداعاته لم أبخل عليها بشيء ولكني تريثت في إعلان حبي لها وقلت: (سأنضج تلك العاطفة على نار هادئة. (

لا أدري لماذا بدأ حبها الخفي الصاعق الهادئ يتسلل إلى قلبي كمخدر خطر لا سبيل إلى كبحه لكنها عرفت بغريزة الأنثى أنني أحببتها وهويتها ، والحب لا يمكن اخفاؤه ولذلك كانت في بعض الأحيان تتغنج وتتدلل ليزداد تعلقي وانبهاري بها ، وهذه بشارة ايجابية تنبىء بإعجابها بي وبولادة حب مراهقة لكهل مجرب ترى هل عادت لوليتا إلي من جديد بقالب محلي وطني مدهش بعيد عن الخيانة؟ ولكن فارق السن بيني وبينها كان يؤرقني!

في يوم من الأيام وبعد مضي أكثر من ستة اشهر على اول لقاء وكانت تجلس قبالتي على طاولة تكتب بعض المعلومات وضعت يدي على يدها التي كانت تستقر على الطاولة فلم تسحب يدها بل ثبتت عينيها الرائعتين بعيني لفترة تمنيت لو دامت دهراً ولمست الحب مترعاً يتدفق فيغرقني وأذوب فيه . يا له من حب كشف عن نفسه بالوقت المناسب وبلمسة حنان ناعمة . لا تحاول أيها الحب أن تختبئ فاشتباك النظرات يفضحك في لحظة رائعة مضيئة بالسحر والخدر وهكذا التفت الأرواح كما ستلتف الساق بالساق فيما بعد فإلى أي حب سيكون المساق ... و شعرت بأن الزمن قد توقف وأنها قد بادلتني حباً بحب وأن ميثاقاً قد كتبه القدر بيننا بلحظة وقد وقع وأبرم . وشعرت بفخر واعتزاز وزهو لأنني أكبرها بأربعين سنة على الأقل ولكن هذه هي إرهاصات الحب القوية التي لا تعرف التوازنات ولا لغة التجارة ولا الأرقام إنها الجنون.

ورغم أنني لم أكن في حالة تأكد تام من مشاعرها نحوي لكنني كنت متأكداً من مشاعري نحوها . لقد أحرقت سفني و لكنني لم أعلن لها مباشرة عن ذلك سوى ما فضحته لغة العيون وقد يكون هذا الحب هو نهاية المطاف لرجل عرف الموبقات كلها وفشل في الحب حتى الثمالة وذاق الغدر والخيانة في أبشع صورهما.

سحبت يدها ووقفت ثم قالت:

علي أن أغادر

فوقفت قبالتها وفاجأتها بأن ضممتها إلى صدري بقوة وعنف وأصبح الآن فمي عند اذنها . ولاشك في أنها أحست بأنفاسي الحارة جداً تلفح عنقها وشعرت بأن رعشة صغيرة هزت بعض كيانها ولكنها لم تزلزلها وظلت رابطة الجأش و لم تعترض واستمرت الضمة فترة لابأس بها فالتقطت شفتيها لبرهة وكانت هي بدورها قد تجاوبت للقبلة الأولى المتوقعة ثم انتفضت وقالت:

لقد تلوثت .. يا لخجلتى من والدي الذي وثق بي ومنذ تلك اللحظة ولد الحب صحيحاً معافى شريفاً صادقاً طاهراً ولم يحتج إلى غرف الانعاش.

أصبحت لقاءاتنا شبه يومية وبدأ الغرام يتجذر ويتشعب وأحسست بأنها أحبتني حقاً كما احببتها لكنني كنت أتساءل بمرارة في أعماقي هل سيدوم هذا الحب وهل سيثمر ؟ أم أن مآسي وعراقيل ستظهر في طريقه ؟؟ كل ما كان يهمني في ذلك الوقت هو الاستمتاع بتلك اللحظة الملائكية الرائعة وبذلك الحنين الذي ليس له مثيل . حبذا لو رافقنا الوفاء حتى نهاية المشوار .

كانت في الصباح تأتي إلى الجامعة لتحضر محاضراتي وبعد الظهر نلتقي في المرسم وعندما أقيم المعارض كانت هي المشرفة على كل نشاطاتي وكان لها أصدقاء في وسائل الاعلام كثيراً ما أرسلتهم ليقيموا معي الندوات والمناظرات والمقابلات لذلك تعلقت بها تعلقاً فاق كل حب أو عشق أو وله ولا أغالي إن قلت أنني وصلت في هذا الحب إلى درجة العبادة

ولكن الفرحة لا تكتمل في أكثر الأحيان كنت أغار عليها غيرة جنونية غير معقولة .

شاهدتها مرة في الطريق تقف مع شاب تحادثه فما كان مني إلا أن أوقفت السيارة في مكان غير معد للوقوف وأسرعت إليها كالمجنون أونبها وأقرعها أمام صديقها

قائلاً:

لماذا أنت لست في الجامعة ؟

استغربت مني هذا التصرف وأبدت اعتراضها محرجة أمام زميلها الذي ظن أني أبوها ولم يقدر أنني عشيقها . وعرفت أن هذا الشاب لا يعدو كونه زميلاً لها في الجامعة . فعدت إلى سيارتي. ومن مظاهر غيرتي أن أجد هاتفها مشغولاً لفترة طويلة فأسألها بعنف وغضب:

مع أي عشيق كنت أيتها الخائنة الحقيرة

تتغازلين ؟؟

تقول بهدوء:

مع أمي أو خالتي وهما في المشفى

فسرعان ما يبرد غضبي ، ولكنني أظل حانقاً لسبب لا أعرفه . وقد انعكست كل هذه التصرفات على علاقتنا التي بدأت بفعل الشك والغيرة تتوتر . وكان كل ذلك يتفاعل ويتراكم ليشكل المأساة القادمة. !

كانت تأتي إلى مرسمي في الساعة الرابعة لنتناقش في جدال عقيم حول خيانة مفترضة لا أساس لها من الواقع.

وكنت أظن أن ما يقرب بيننا هو العلاقة الجسدية التي علي إقناعها بممارستها لتأكيد الحب ونفي الشك ولمحو غيوم الخيانة المفترضة.

وفي أحد الأيام التقيتها ولم يكن بيننا قبل ذلك غير الضم البريء والقبلات مانعت في البدء ثم انصاعت وهكذا بعد محاولات أصبحنا عاريين وقد أخذتها بفعل أقرب إلى الاغتصاب منه إلى الرضا المتبادل . بكت يومذاك كثيراً ثم قلت لها مخففاً ألمها.

-لم الحزن .. أريد منك طفلاً ! ولكن بعد سنة بعد أن تكون أجسادنا قد تعودت على ممارسة الجنس ونالت لذائذه ومتعه.

وهكذا استمر الحال كما كنت أفعل بلوليتا الايطالية التي كأنها قد عادت من جديد بكل تلك الطقوس التي سبق ان مارسناها في روما حتى أنني رسمت جسدها بكل الأوضاع ولكن صورة الوجه كانت مبهمة ولا تدل على ملامح واضحة خوفاً من أن يشاهدها من يعرفها .

الفصل السابع

مضت سنوات ثلاث على معرفتي بلوليتا و توطدت العلاقة إلى درجة كبيرة يصعب انفصامها . وكنت التقي بها مرتين في اليوم في الصباح كانت تواظب على حضور محاضراتي في الجامعة وفي المساء عند الساعة الرابعة عصراً كانت تأتي إلى المرسم ونمضي أكثر من ساعتين نتسامر ونتناقش في شؤون الحياة ونتبادل الحنان والحب . وصادف في أحد الأيام أن اتصلت بي في الساعة السابعة صباحاً على غير عادتها ودار بيننا الحوار التالي:

حبيبي لن أستطيع اليوم في هذا الصباح حضور محاضرتك.

لماذا ؟ وما هو المانع؟

-طلب مني أحد زملائي في المدرج وكان يراقبني منذ أكثر من شهر أن يراني في حديقة الجامعة وأن هناك أمراً هاماً يخصني سيدلي به إلي.

الم يصرح بفحوى هذا الأمر أو على الأقل يلمح إلى شيء من مضمونه؟

لا لم يقل شيئاً ولم يصرح . كل ما قاله أن موضوعاً خاصاً يتعلق بي وبه سيبحثه معي وأنه سيخبرني به عند اللقاء.

انزعجت وذهبت بي الظنون شتى المذاهب

وانتابتني غيرة لم أعهدها من قبل . وقد ألقيت محاضرتي الصباحية وأنا في أسوأ حال ، وتمنيت أن يمضي الوقت بسرعة هائلة لأعرف سبب لقائهما وما هو الأمر الخاص بينهما الذي سيبحثه معها . وكانت أمواج الغيرة المجنونة تلطمني وتقذف بي إلى صخور مدببة كالخناجر لشاطئ موحش الظنون وشعرت بحنق كثير وقليل من الكره الذي يرافق الحب في بعض الاحيان عندما يعتريه الشك فلولا تشجيعها لهذا المخلوق لما تجرأ وطلب منها هذا اللقاء الخاص وأصابني هيجان و غضب وقلق كبير.

عندما أزفت الساعة الرابعة لم تأت فقلت لقد هجرت الطيور أعشاشها . والقادم أسوأ فلأهيئ نفسي لمزيد من الغضب والحزن.

في الساعة الثامنة مساء اتصلت بها وقلت بلهجة عدوانية وبدون مقدمات أو سلام:

لماذا لم تتصلي يا صاحبة الوفاء والشرف المصون وتخبريني عن لقائك بالمحبوب ؟

حبيبي ! الأمر لا يستحق القلق ولا الغيرة ولماذا هذا التهكم فليس لي محبوب غيرك . الأمر تافه وسأخبرك بما حدث غداً بل الآن وفوراً .. الغيرة تأكلني

كل ما في الأمر أنه طلب مني التعارف لعلنا نصل إلى حالة حب تسوقنا إلى الزواج.

انفجرت بغضب لا حدود له وبغيرة مجنونة وكأنها اقترفت جرماً عظيماً وخيانة موصوفة فقلت:

لولا تشجيعك له بنظرة أو ضحكة أو كلام معسول لما تشجع الذي في قلبه مرض فتجرأ على الطلب.

إنك مسؤولة عن رفع الكلفة والحواجز ؟

-لم يحدث شيء من ذلك اطلاقاً

واحتد صوتها رغم كتمها الغضب وقالت:

-كل ذلك من نسج خيالك المريض وغيرتك غير الطبيعية.

خففت لهجتي قليلاً وقلت:

ما اسمه ؟

ماذا يفيدك الاسم والشاب كان مهذباً ولم يتعد الحدود .. اسمه بهاء

-لماذا تخفين كنيته أريد اسمه كاملاً.

لا أعرف الكنية

ثارت ثائرتي واندفعت كثور هائج لمح الراية الحمراء وتلقى رمحاً في رقبته من المصارع.

إنك تكذبين هذه خيانة

قالت:

هون عليك نلتقي غداً في الرابعة وسأخبرك بكل التفاصيل.

لم تحضر في الصباح وتغيبت بدون أن تخبرني . لعلها التقت به مجدداً وهي تطارحه الغرام في بيته أو في مخدع ما .. ذهبت بي الظنون كل مذهب وعانيت الكثير في يومي هذا وانتظرتها في المرسم منذ الثانية ظهراً . دخلت المحترف في الرابعة تماماً .. لم آخذها بحضني كما كان سابقاً ولم أقبلها بل قابلتها بعاصفة هوجاء من الغضب وقلت:

ما اسمه الكامل وأين التقيتما اليوم ؟

-لم ألتق به وقد ذهبت مع والدتي إلى المشفى لأنها مريضة ثم لماذا تريد اسمه وماذا تنوي أن تفعل به ؟

-أريد أن أدمره تدميراً وأمحقه محقاً وأسحقه كحشرة حقيرة

ازدادت مخاوفها وأصرت على عدم البوح ونشبت معركة كلامية بيني وبينها انتهت بخروجها من المرسم في حالة من الغضب شديدة وهيجان فظيع فقررت بسرعة هجرها وعقابها ولا أدري أي نوع من العقاب سيحل بها...

ومرت أيام عانيت فيها الكثير من غيابها لكنني لم أستطع المقاومة لأن حبها أصبحك الأفيون في دمي. واذا لم ألقها بعد ساعات فسوف أدمر نفسي وأدمرها ، ومررت بحالة شديدة من الصراع والغيرة انتهى بأن قررت الاتصال بها حتى ولو أدى الأمر إلى الاعتذار وفي نهاية المكالمة قالت:

أنت شديد الغيرة بل أنت مريض بنوع من أمراض الغيرة خطير وسأحلف لك على القرآن بأنه لا توجد بيني وبينه علاقة سوى الزمالة البريئة

رجعنا مجدداً وتدفق نهر الحب وتعمق حتى درجة العشق وأحسست بأنها تحبني لأنها تسامحني دوماً وتصفح عن تجاوزاتي وتعرف أن سبب كل ذلك هو الغيرة المرضية التي ليس لها حدود . لم تكن الغيرة تجاه لوليتا الايطالية بمثل هذا العنف وقد تكون خيانة لوليتا الايطالية هي التي ولدت لدي ترسبات واحدثت شروخاً ، و قبل ذلك خيانة ناديا وزواجها بعد اهمالي وتركي

رجعنا إلى الحنان والمناجاة و الحب لفترة ما بعد الظهر فمنذ الرابعة وأحياناً وحتى منتصف الليل يدوم اللقاء في حالة من النجوى والهيام دون أن نشعر بمرور الوقت ونسيت أن أقول أن لوليتا هي من إحدى القرى التابعة لريف دمشق وتسمى دير العدس

وانها تدرس الفنون الجميلة والرسم في دمشق وقد استأجرت بيتاً متواضعاً للإقامة فيه في منطقة العشوائيات وفي هذه الحالة ليست تحت سيطرة أحد من أهلها ولكونها بطبيعتها متحررة ولكنها عنيدة ومعتدة بشخصيتها و مزاجية وتملك زمام أمرها سعت إلى وظيفة في إحدى المؤسسات الخاصة ولم تعد تحضر صباحاً في الجامعة فزاد اعتمادها على نفسها وكثر اشتياقي إليها وتحسنت أمورها المادية وفي هذه المرحلة كانت الأحوال بيني وبينها في منتهى الصفاء لا تعكرها إلا بعض حوادث سببها الغيرة فتعود الأمور لأسوأ مما كانت عليه . كانت الأمور تنوس بين حب وغيرة و كان ذلك يؤرقني ويؤجج الخلاف فيما بيننا ووجدت أخيراً أن أسعى إلى توثيق هذه العلاقة عن طريق وعدها بالزواج وتكوين أسرة رغم فارق السن الذي رضيت به للوهلة الأولى.. رحبت هي بالفكرة ببرود ولم تعارض بشكل جلي بل كنا نتسامر ونتناقش في أمور أولادنا الذين سننجبهم ونختار أسماءهم وقالت أنني لن أنجب سوى طفلين بنت وصبي سأسمي الصبي سيزار وأسمي البنت سبنتا

وقلت لها:

لترجع معاً إلى ايطاليا ونفتح محترفاً نعيش من موارده ونبني مجدداً شهرة واسعة لأن أسرتك ستعارض هذا الزواج بسبب فارق السن وإن الناس سيدلون بكلام لانهاية له في أسباب هذا الزواج.

قالت:

كلام الناس لا يقدم ولا يؤخر

في أحد الأيام جاءتني صبية ترغب في تعلم الرسم والمساعدة في اظهار موهبتها اسمها (ريدا) وكنت ألتقي بها أحياناً من الواحدة حتى قبيل الرابعة حيث موعد لوليتا وتأخرت معها يوماً لما بعد الساعة الرابعة وكنا نشرب الشاي . دخلت لوليتا فوجدتنا على هذه الحالة كانت تجلس زيدا قريبة مني .. ولما رأتها ظنت أن في الأمر شيئاً . تغير لونها واصفرت وبدت الغيرة واضحة على محياها . ولأول مرة أشاهدها على هذه الحالة المزرية ولاحظت ريدا ذلك فانسحبت وأغلقت وراءها الباب وما كاد باب المرسم يغلق حتى انتفخت أوداج لوليتا وانفجرت قائلة:

ماذا كانت تعمل هذه العاهرة هنا ؟

ليست بعاهرة إنها فتاة بريئة أعطيها دروساً في الرسم

كاذب إنك تخونني معها أكثر من مرة كنت أشاهدها قبيل الرابعة بقليل تخرج من مرسمك ولم أقل لك ذلك وتجاهلت الأمر في هذه اللحظة كانت في أعلى درجات الغضب

والغيرة وقد اخذ ذلك منها كل مأخذ ووجدتها تتناول كاساً من الشاي وتلقيه بعنف على الأرض فيتكسر إلى قطع صغيرة ويملأ أرض المرسم ولم تكتف بذلك بل تناولت كاساً أخرى فارغة وكسرتها أيضاً وهي تصيح: خائن .. ولا أمانة للرجال

امتلأت نفسي سروراً وغروراً لكني كتمت ذلك . إنها تغار علي اذن فهي تحبني .. لكنني تصنعت الهدوء وحاولت أن أضمها لأهدئها قليلاً لكنها دفعتني عنها بقوة وظلت منزعجة الأيام .. ومنذ ذلك اليوم بدأت تشك بي وتعيرني وتراقبني فأوقفت دروس ريدا وزدت من لقاءاتها لكنها وعدت بأنها ستخوننني كما خنتها ولاحظت أنها قد تغيرت وبدأت تكرهني أو هكذا خيل إلي وهذا ما جعل الغيرة في قلبي جحيماً لا يطاق

الفصل الثامن

على غير العادة انقطعت أخبارها عني اسبوعاً كاملاً عانيت خلاله القلق والانزعاج وكان لابد من أن أتصل بها ففعلت أكثر من مرة وكان هاتفها في كل مرة ينبئ بأنه خارج التغطية أو مغلق . وخامرني شك في الأمر وذهبت بي الظنون شتى المذاهب وتمنيت لو انني كنت أعرف بيتها في العشوائيات حيث تسكن وفكرت بأن أذهب إلى إحدى رفيقاتها مستفسراً لكنني وجدت أن ذلك لا يليق بي ولا بها وخطر في بالي أن أذهب إلى قريتها دير العدس التي تقع الى الشمال من دمشق ووجدت نفسي مضطراً إلى أن أفعل ذلك ولم يكن عندي خيار آخر.

يممت صباحاً صوب تلك القرية وفي الطريق خطر في بالي سؤال

ماذا لو كانت ماتزال في دمشق ؟

وأنا ذاهب أسأل عنها في دير العدس . غباء.

عندئذ أكون قد ارتكبت حماقة . وبأي صفة سأقدم نفسي إلى أهلها أو أي تبرير يمكن أن أقدمه و ما هو العذر المناسب لكل هذا ؟ لاشك أن أهلها سيقولون من أنت ما غرضك ولم تجشمت كل هذه المسافة ؟ أنت تضمر مكراً أو غرضاً سيئاً. (

كانت الأفكار السلبية تتوارد في خاطري لكنني كنت مصمماً على الذهاب مهما كلف الأمر.

كانت الطريق إلى دير العدس ضيقة عكرة وباتجاه واحد مفروشة باسفلت قديم تشقق تصعد أحياناً لتهبط أحياناً أخرى ولقد وصلت إلى القرية المتواضعة في العاشرة صباحاً

ولم يكن عندي في ذلك اليوم أي دروس أو محاضرات في الجامعة وعلى مشارف تلك القرية المتواضعة وقفت أتأمل موطنها ومسقط رأسها وتعجبت كيف تخرج مثل هذه القرى ذات البيوت الطينية المتهالكة صبايا جميلات رائعات ذوات جمال أخاذ وروح عطرة ذات شذى ساحر يفضلهن العشاق عندنا على بنات الغرب ونسائه

سألت عن بيت أهلها فدلني فتى صغير كان يلعب وأشار إلى بيت طيني بلون زبد البحر له باب خشبي مغلف بالتوتياء.

توقفت بعيداً عن الباب راصداً الحركة التي كانت بطيئة وشبه ميتة لمحت رأساً يطل من ذلك الباب وهو يحدق الى سيارتي ..... إنها هي ... وقد ظهرت ملامحها وتقاطيع جسدها الناعم الغض اقتربت مني وبابتسامة حزينة قالت:

ماذا جاء بك إلى هنا في هذا الصباح؟

استغربت السؤال وأجبت:

الشوق والشك والقلق

قالت:

والدي على شفا الموت ولا يوجد طبيب في القرية لا نعلم سبب مرضه .. فجأة انهارت قواه .. وشعر بألم ممض يقول كان مخالب وأنياباً تمزق صدره.

قلت:

اختلقي لأهلك عذراً عن سبب مجئي لتبرير حضوري المفاجئ وسننظر ماذا نفعل.

ترجلت من السيارة ومشينا معاً خطوات حتى وصلنا الباب حيث دخلنا وقدمتني لأهلها قائلة:

أستاذي في الجامعة كان قريباً من هنا أراد أن يخبرني بأنهم قربوا موعد الامتحان وقد تغيبت أسبوعاً وخاف أن يفوتني موعد الامتحان فجاء يخبرني والاتصالات مع العاصمة مقطوعة.

نظرت إلى امرأة في أواخر الأربعينات من عمرها فوجدتها تحدق بي بشك وريبة وهي تقف حيرى مندهشة من أستاذ جامعي يحضر إلى القرية ليخبر فتاة في العشرين بموعد فحصها.

إلى اليمين منها كان هناك شاب في الخامسة والعشرين تقريبا قدمته لي على أنه أخوها .. أما الأب فكان جثة تتلوى في الفراش يئن من الألم.

قلت:

هل هو على هذه الحالة منذ زمن طويل وما مرضه؟

قالت الأم:

لقد أرسلتك العناية الالهية لتنقذ عائلنا

زوجي أحمد وقد داهمه المرض بقسوة ولا نعرف السبب ولا الطريق إلى العلاج.

اجلسوني على كرسي خشبي محاولين تقديم بعض الضيافة لكنني قلت لهم:

ليس لدينا وقت وكل دقيقة لها ثمن ،

هلموا الى مشفى العاصمة

ركبوا معي واتجهنا إلى دمشق بأقصى سرعة وعندما وصلنا إلى العاصمة توقفت عند مشفى المجتهد وتعاونا جميعاً في انزال المريض إلى قسم الاسعاف ثم اجروا له التحليل والتخطيط والتصوير والأشعة واستغرق ذلك أكثر من خمس ساعات وتبين أن الأب مصاب بداء السرطان وقد تمكن من الصدر والرئتين بشكل شبه كامل.

وقفت مع الطبيب بعد أن عرفني فأسر لي بما يلي:

لا أمل من شفائه وقد تأخروا في تقديم الجرعات له وسيموت خلال شهر وفي كل الأحوال سنعطيه حقناً كيميائية لكن الحالة ميئوس منها . والأفضل أن لا يمكث في المشفى كثيراً لكن عليه أن يبقى في دمشق أياماً على الأقل لأخذ الحقن

أخذتهم إلى دارتي حيث أسكن ، أصروا في البداية على أن ينزلوا في أحد الفنادق لكنني أقنعتهم بالإقامة في بيتي ونمت يومذاك في المرسم ولم أقل لهم حقيقة مرض أبيهم ولما

سألوني قلت:

أيام وستظهر النتيجة

عاد شيء من رونق إلى الوجوه وسعدت لوليتا بما قدمت لذويها وقد سهرت معهم اهدهد احزانهم انتعشت حالة الأب خلالها قليلاً وشجعته بإمكانية الشفاء وناموا فترة في ارتياح تام . فيما بعد اضطررت بدافع وجداني داخلي بأن أصرح للوليتا بالحقيقة فوجئت بها تندفع نحوي وتتعلق بكتفي وتبكي

على صدري وتقول:

لن أنسى فضلك مدى الحياة وقد أرسلك الله الينا حتى تخفف عنا الآلام أنت أبي الروحي وحبيبي. لولا مساعدتك ما كان لنا أن نعمل الذي عملناه.

أخذ أبوها في الصباح الأدوية والمنشطات وتحسنت حالته قليلاً وفي المساء سهرت معهم أيضاً.

قال أبوها وقد استعاد شيئاً من وعيه:

أبو ايش بسلامتك ؟

قلت:

لست متزوجاً

قال:

في هذه السن ولم تتزوج كم عمرك

الآن ؟

أنا في التاسعة والخمسين

الرجل ينجب ولو كان في التسعين لحق حالك وتزوج لأن اللي خلف ما مات(

-سأدرس الفكرة وسأسعى للزواج

لو كانت ابنتي أكبر قليلاً لقدمتها زوجة لرجل شهم مثلك ولكنك بعمر أبيها

عاد هاجس السن يطاردني وكلام أبيها رفض ضمني للحب أو الاقتران . كم أنا كهل إذن

وبعد أيام اجتمعت به أيضاً وقد عرف أنه سيغادر قريباً.

قال لي:

ابنتي أمانة في رقبتك ليس لنا معين إلا الله وأنت .. كن أباها الروحي احمها من الذئاب والغدارين

قلت له:

سأفعل

هل أقول له أنني أشرس ذنب حام حول ابنتك ليفترسها وقد افترسها فعلا وأنه استدرجها لكي تحبه ثم استمتع بها واكل لحمها وتلذذ بثمار جسدها ماذا يمكن أن أقول له ؟ هل أفي بتعهدي أم انكص على عقبي ؟ أم أستمر في غيي سادراً.

قال الطبيب:

اذهبوا به إلى قريته فالأفضل له أن يموت في بلده ومن أجل التكاليف

لقد كان الطبيب محقاً فقد دخل أبوها في طور الغيبوبة ثم أجهز عليه المرض بدون رحمة . توفي بعد أسبوع من وصوله إلى دير العدس وذهبت يوم دفنه لتقديم التعازي، وشهدتهم وهم يهيلون عليه التراب . وتأثرت لنهاية كل إنسان مهما كبر أو صغر لأنه سيلقى نفس المصير.

ذهب المشيعون وبقيت مع ابنه وابنته أما الأم فكانت تلتزم البيت لقضاء العدة كما هي العادة.

استأذنت أخاها بأن يتركنا أنا وهي عند القبر قليلاً فامتثل للأمر ولم يسأل لماذا وبعد أن قرأت الفاتحة على روحه بصوت عال وكانت تستمع إلي بانتباه حزين قلت بشيء من الاستعراض :

-أبا أحمد أيها الصديق العزيز . يا من أصبحت تحت التراب ولكنك تسمعني أعاهدك بأنني سأبقى مع ابنتك محباً وفياً وأباً روحياً وصديقاً مخلصاً فنم يا صديقي قرير العين فأمانتك مصونة .

جاءني الخشوع فبكيت . مع أني كنت قبل قليل رابط الجأش ربما لأنني كنت قد رأيت الجمال الصارخ الحزين منكسراً وقد تجلى في أبهى صوره مع السواد وبياض البشرة أو ربما لأنني وجدتها ترتمي على صدري وهي تشهق وتقول :

لن أتخلى عن حياة بدأتها وعشتها واقتنعت بها معك أنت الملاذ الآمن .

كان موقفاً مؤثراً وعاطفة سادها صدق المشاعر. عدت معها إلى بيتهم وقدمت واجب العزاء.. ودعتني وهي تقف على نافذة السيارة لتقول بعد أسبوع سأكون عندك في المرسم .

الفصل التاسع

عادت من القرية بعد عشرة أيام من دفن والدها حزينة واجمة مكسورة الخاطر اكتفينا يومذاك بالضم وتبادل الحنان فقط ولم نمارس الحب .

قالت :

لقد ازداد تعلقي بك فبالإضافة إلى الحب الذي كان ستكون والدي الروحي لقد وقفت الى جانبنا في المحنة أقرب من أي قريب وأغلى من أي حبيب

سأكون محباً وعاشقاً وأباً ومعيناً ومرجعية لك في كل شيء وحتى انقضاء العمر .

لاحظت أن لهجة الخطاب قد تغيرت من كلينا. خف الشبق العدواني ليظهر الحب الحميمي الهادىء ازدهر حب أبوي ونما بفعل الحزن والموت وخفت أن تتغير الأمور لصالح هذا الامتداد الجديد وأن لا تعود سيرتها الأولى لكن مخاوفي لم تكن في محلها.

استمر الحزن شهرين ولم نقم بفعل الحب وصرنا نكتفي بالضم والقبل وكانت تقول لي:

أحتاج إلى الحنان أكثر من أي شيء آخر لقد ذهب والدي ومعه الحنان كله ولم يبق لي سواك أنهل منه حنان الأبوة.

وكنا ننام معاً في الفراش جنباً إلى جنب دون أن نمارس الحب . وكانت مخدتها ذراعي ولحافها يداي وصدري ثم تنهض بعد ساعة وقد اكتفت حناناً لترتدي بقية ثيابها التي خففتها قبل الاضطجاع إلى جانبي .

كانت ما تزال تلبس الأسود وتخفف من مشاعرها واهتماماتها ازاء كل ما يحيط بها وحينما كنت أسألها :

لم خف الحماس للحياة كانت تقول :

نحن محكوم علينا بالإعدام مع وقف التنفيذ حتى تحين لحظة الموت ، لقد أصبح أبي حلماً سرابياً وغاب إلى الأبد وسنغيب بدورنا حينما يحين الأجل .

فوجئت في يوم من الأيام وقد شاهدتها تتنزه في الحديقة العامة مع شاب وسيم فاشتعلت غيرة وغضباً ولما عدت إلى المرسم هاتفتها قائلاً :

كنت تتنزهين في الحديقة العامة مع شاب مفتول العضلات على ملامحه علامات القذارة قالت :

نعم هذا صحيح ولكنه ليس كما تصف

من هو ؟ وما صلتك به ؟

- إنه سمير موظف في المؤسسة التي أعمل فيها . طلب مني مرافقته لنتنزه في الحديقة ليواسيني ويخفف عني

قلت متهكماً :

يخفف عنك ماذا أيتها الطاهرة النقية ؟

حزني ويشجعني على حب الحياة

هذا نوع مبطن من الخيانة تحت غطاء إنساني

لا ليس الأمر كما تظن ، إنه يساعدني في محنتي فقط إنها صداقة مميزة

لماذا لم تخبريني بعلاقتك به من قبل ؟ لا لزوم لذلك فليس من الضروري أن أخبرك بكل شيء عن تصرفاتي فلست فتاة صغيرة قاصرة أصابني الحنق والغضب والغيرة فأغلقت الهاتف في وجهها وقلت لنفسي محتداً هكذا تبدأ الخيانات

في اليوم التالي جاءت بعد الظهر إلى المرسم وكنت ما أزال غاضباً قالت :

أما تزال في حالة من الغيرة ؟ لا تخف. لن يكون في حياتي رجل سواك فأنت كل أملي.

خف الغضب والحنق قليلاً فقلت :

-عاهدت والدك أن أحافظ عليك أمانة مدى الحياة.

اذا المرأة لم تحافظ على نفسها وشرفها ونظافتها بنفسها فلا أحد في الكون يمنعها وإذا أرادت الخيانة فلا أحد في الكون يعصمها بخير . هدى نفسك فحبنا

هدأت نفسي قليلاً محاولاً إقناع ذاتي بأنني أبالغ في تقدير الأمور وأزيد في منسوب الغيرة ولا أدري كيف خطر في بالي أن أقول لها تلك الفكرة التالية :

لنذهب إلى مصايف بلودان فنقضي يومين نتخلص بهما من طاقاتنا السلبية ومن حزننا ومن تطفل الآخرين.

وكنت أقصد صديقها الجديد فوافقت وقضينا يومين وليلتين من أروع ليالي العمر في بلودان رجعنا إلى دمشق ومعنا طقوسنا السابقة في الحب الذي ألفناه ومارسناه سابقاً وكان الحزن قد ولى إلى غير رجعة .

عاد للمرسم ألقه وفرحه و رجعنا نلتقي فترة ما بعد الظهر حباً وعشقاً ولهفة ولكن فكرة مراقبتها في مكان عملها وفي الفترات التي تغيب عني فيها ما تزال هاجسي الدائم ساعدني في ذلك موظفة تعمل في تلك المؤسسة ذاتها وفي أول تقرير لها قالت :

أن لوليتا ماتزال تخرج ما بين الفينة والفينة مع سمير وأنه أحياناً يوصلها بسيارته البيضاء الصغيرة إلى بيتها ويقومان بقضاء بعض المشاوير كانت لتلك الأنباء التي وردتني وقع حزن ممض ووقع خيانة ولما التقيتها وجاءت إلى مرسمي قابلتها بفظاظة وأجلستها على الكرسي بعنف وقلت بلهجة آمرة :

أجيبي على أسئلتي بكل صدق

وصراحة :

- ما علاقتك بسمير ؟

زميل عمل

- ما نوع العلاقة والزمالة بينكما ؟

صديق مميز

ما هو الفرق بين الصديق العادي

والصديق المميز ؟

ارتاح له ويخدمني

- يعني تحبينه ؟

لا . الحب شيء آخر

اليست الصداقة نوعاً من الحب ؟

هناك اختلاف بينهما

وتستمر التحقيقات حتى تضجر لوليتا وتمل وأحياناً تخرج من المرسم حانقة غاضبة وتحلف أنها لن تراني أبداً . لكنها ترجع بعد يوم أو يومين وكأنها لا تستطيع أن تستغني عن المخدر الذي أمنحها إياه .

وفي يوم شاهدتها تفتح باب سيارة سمير وتركب ولما رأتني اهتز كيانها وخافت لقد شاهدتها بالجرم المشهود واعتبرت ذلك خيانة وسألتها :

إلى أين أنتما ذاهبان ؟

قالت :

سيوصلني سمير بسيارته إلى (الكراج) لأني سأذهب اليوم إلى القرية لزيارة قبر أبي .

أقلعت بسيارتي بعنف ونظرت إليها نظرة شزراء وبمنتهى الازدراء قلت : يا للخيانة التي بدأت بنادية ولم تنته بلوليتا . إنه عصر الخيانات و السفالات والتفاهات

وهكذا توالت لقاءاتها بسمير دون أن تعترف بالحب الذي بدأ يتكون بينهما متذرعة بأنهما يعملان معاً بتعقيب المعاملات . وإن العلاقة بينهما علاقة عمل أو صداقة مميزة فيا لغرابة المشاعر . بل يا لغرابة النساء اللائي لا يحفظن الود والوفاء وينسين المعروف .

الفصل العاشر

اعتقد أن قليلاً من الناس قد مر بالمرحلة التي امر بها الآن والتي أسميها (حالة اختلاط المشاعر وهي أن تداهمك المشاعر المتناقضة في ذات الوقت ويختلط بعضها ببعض تماماً كما تختلط الأدوية المضادة وتشكل في بعض الأحيان كارثة لجسم الإنسان . وإذا كان بيد المريض وعلمه وثقافته وإرادته أن لا يخلط بين هذه الأدوية المتنافرة فيتقي عقابيلها إلا أنه في المشاعر الإنسانية قد تختلط بطريقة لا يد للإنسان بها ويعيشها مرغماً ... وقد كنت فيما مضى أحب لوليتا لدرجة العبادة ولم يكن ليخامرني شيء من الشك في هذا الحب مثل الملل أو البغض أو الكره وكنا نقوم بفعل الحب بشغف وتوق كبيرين ومن الغريب أنني وإياها لم نكن لنعتقد أن هذا الفعل مشين أو غير اخلاقي بمجرد أنه يخلو من ورقة وضع عليها موظف رسمي توقيعه ... الحب أسمى من كل ذلك وهو إلفة خلقها الله بين اثنين ولذلك هي مقدسة الآن يشوب هذا الحب شك وقلق مبعثهما الغيرة لكنها ليست مبنية على يقين عندئذ يختلط الحب بشيء من البغض أو الكره يؤدي أحياناً إلى البحث عن فكرة معاقبتها والانتقام بطريقة تردعها وتمنعها من الخيانة .

هي لها أصدقاء كثر ولكنها تفضل أحدهم لدرجة كبيرة تسميها مميزة و المؤكد أن بينهما أسرار وأعلم وبشكل يقيني أنها لم تقل له ما كان يجري بيني وبينها فهي أيضاً من هذا المنحى تخونه ايضا وربما قالت له يوماً وهو يسألها عني بأنني صديق البابا ويمارس الآن دوراً أبوياً ومرشداً .. ورغم الشك وعدم التأكد من خيانتها إلا أنني لم أكن لأغفر لها هذا السلوك ومن هنا بدأ يتسلل إلى نفسي نوع من الكره يدعوني إلى الانتقام . يقولون إن الكره هو الوجه الآخر للحب وفي هذا شيء من الحقيقة . لقد اختلطت علي مشاعر عدة بين الحب وبين البغض وبين الغيرة والانتقام فاضطربت عقليتي واختل توازني وقلت لنفسي إذا أردت العقاب والانتقام فلتكن التضحية مشتركة لأنني لو بقيت بعدها حياً وغادرت هي فسيعذبني ضميري واندم إذا تبين لي أن شيئاً

من براءتها موجود لصالحها ويكون ندمي كما ندم ديك الجن الحمصي يوم قتل معشوقته ورد .

لقد تسرع في قتلها وتبين له فيما بعد براءتها فندم أشد الندم وكاد ينتحر ليلحق بها وكل ما فعله أخيراً أنه صنع من رفاتها كأساً صار يشرب به الخمر حتى ينسى ويغيب عن آلام صنعتها العجلة وخلقها التسرع .

ظللت شهوراً في حالة اختلاط المشاعر هذه . أفكر بالوسيلة التي تخرجني من هذا المأزق وتضخمت فكرة الانتقام وأصبح الشك شبه مؤكد من هنا توصلت إلى فكرة لو نفذت فإنها ستكون مفجعة . واستعنت بصديقتها التي مازالت تراقبها وتمدني بالمعلومات بأن علاقتها بسمير قد تطورت في الفترة الأخيرة بشكل متسارع حتى أنهما شكلا شركة وهمية أو حقيقية للتخليص الجمركي وتعقيب المعاملات واستأجرا مكتباً يمارسان فيه ظاهرياً هذه المهنة والتي تشبه مهنة المحامي.

وقد سبق لسمير أن قام بمثل هذه المهنة ولما جابهتها بهذه المعلومة لم تنكر وقالت أنها استأجرت مكتباً في وسط المدينة متخلية عن بيتها في منطقة العشوائيات من أجل توفير مصروف النقل والمواصلات والاستفادة من الوقت أيضاً وأنها في هذا المكتب تقوم بأعمال تتعلق بالطباعة والسمسرة . إذن قصة المكتب حقيقية وقد اعترفت بها وأن الأمور ما بينها وبين سمير محبوكة بمكر وخبث لإبعاد الشبهات عن اللقاءات الغرامية أو هكذا تخيلت .

غابت أسبوعاً ثم التقيتها في أحد الأيام فسألتها:

ما هي أخبار سمير ؟

-لم أعد ألقاه إلا قليلاً فعملي الجديد أخذ كل وقتي

ألا يزورك في المكتب ؟

في بعض الأحيان

في أي الفترات ؟

فترة ما بعد الظهر

إذن كانا يلتقيان في الفترة ذاتها التي كنت ألقاها فيها في الساعة الرابعة ولابد أنهما يقومان بفعل الحب . لعلها كانت تكذب ولكن الأخبار كانت تردني من صديقتها التي كلفتها بدور المراقب وصرت أدفع لها راتباً شهرياً .

الكذب والخيانة وسيلتان لدوام علاقتها بسمير الا يكفي هذا مبرراً لإيقاع العقاب بها وربما سينالني أيضاً شيء من ذلك العقاب (قلت لنفسي) وفي النهاية فإننا سنتساوى في الفعل الجرمي ويجب أن نتساوى في العقاب كذلك قررت الانعزال قليلاً عنها وكان في بيتنا القديم مكتبة كبيرة تؤدي إلى مخدع كان والدي يمارس فيه التأمل وعجبت لأمره فقد كان يجمع بين التجارة و التصوف وهما نقيضان . مع الأسف لم أكن فيما مضى أرتاد مكتبتنا المنزلية بل كنت لا أدخلها إلا لماماً .

وعرفت بعد عودتي من روما أنها مكتبة سلفية ذات أوراق صفراء ومعظم الكتب فيها غير مقروءة وأظن أن بعض أوراق كتبها مصفرة وهذا دليل على أنها لم تفتح ولم تقرأ.

وتغير البرنامج بعد انقطاعي عن لوليتا فصرت أقضي فترة ما بعد الظهر في المكتبة وأحياناً أقعد في المخدع وحيداً أمارس التأمل لأول مرة في حياتي وأحببت هذه العادة لأنها تعيد للنفس صفاءها. وهذه المكتبة التي لم أفهم دورها في حياة أبي لعلها كانت مظهراً للتفاخر فحسب.

أفرأيت من اتخذ الهه هواه فاضله على علم) لوحة علقها أبي في صدر المكتبة ولا أدري أعمل بها أم أهديت إليه من أحد أصحابه أو اصدقائه . وإذا كان قد عمل بها فإن هواه كان جمع المال الذي بددت معظمه على الموبقات في مطلع حياتي وأخذت بقول مدير المركز

(حتى تصل إلى الأرض الخضراء علينا أن نخوض في المستنقعات) ولأول مرة أكتشف سخافة هذه الفكرة فالغايات الشريفة تحتاج إلى وسائل شريفة والوحول ستضل عالقة بمن خاض في المستنقعات ووجدت أيضاً أن لوليتا وأمثالها تتصارع لديها المصالح والعواطف والنتيجة الحتمية ستكون الغلبة للمصالح وأن لوليتا الدمشقية قد تركتني وصادقت سمير بما سمته صداقة مميزة إنما هي مصالح مميزة يقدمها سمير لها أقلها سيارته الصغيرة القديمة وعضلاته المفتولة التي ستترهل يوماً . لا أدري في هذه اللحظة كيف تذكرت لوليتا وكيف كنت أقول لها في بعض الأحيان إنني أحبك بل أعبدك هل كانت تقول لي في سرها وأين يصرف مثل هذا الكلام ؟؟ وهل يمكنني أن أحوله إلى نقد ؟ كان بإمكاني وعن طيبة خاطر أن أدفع لها في كل شهر راتباً ضخماً على شكل مساعدة وقد هممت أن أفعل ذلك يوماً لكنني خشيت أن يتحول الحب النقي الصافي إلى حب مأجور ليس له قيمة وتنزل هي من سمائها الملائكية إلى تلك المستنقعات الحمنة . وقد علمت أنها كانت تتقاضى مبالغ سنوية ضخمة من موسم اللوز عن حصتها التي ورثتها عن أبيها وعندما كان أبوها على قيد الحياة كان يوزع مردود موسم اللوز على أبنائه بالتساوي . لكن أن تكون غنياً وفي الوقت نفسه جائعاً إلى تكديس النقود فهذا وارد ومعمم عند أكثر الموسرين وما اجتمع مال إلا من شح أو حرام.

أعود إلى اللوحة المعلقة ولماذا وضعها أبي ومن كان يقصد ؟ وهل أدرك هو مغزاها فعلقها لهدف مقصود وعرف تأويلها أم علقها للزينة في ذلك المكان قريباً من كتبه فكانت ككتاب مهجور لم يفهمه القراء بل كانوا يقرؤونه ويترنمون به دون فهم .

وفوجئت بالباب يطرق . ليس من عادة أحد ان يدخل المكتبة كما قال لي عمي وكان الطرق يأتي من الباب الخارجي للمكتبة وليس من داخل الدار لأن والدي قد جعل للمكتبة أيضاً باباً خارجياً يدخل منه ويخرج إلى المكتبة متى يشاء دون أن يشعر به أحد وغالباً ما كان يدخل منه أصدقاؤه وأصحابه فتحت الباب لرجل في السبعين .

قال بعد أن سلّم :

-الست انت ناصر الدرعاوي ابن المرحوم ..... قلت :

- نعم .

أنا صديق والدك واسمي عبد الرحمن الدهري كنا نجلس في هذه المكتبة نسهر الليالي الطوال ... نتناقش في أمور الحياة والتصوف نحاول الوصول الى السر الالهي، ونتناقش ايضا في امور الدكان والتجارة ومعاملات المالية والضرائب

وكان يعطيني مفتاح المكتبة لأدخل إليها أحياناً وحدي فأمارس القراءة والتأمل وأحياناً رياضة اليوغا. وفي أكثر الأحيان لأعد الحسابات بدفترين : دفتر حقيقي أبقيه هنا ودفتر الضرائب المالية أبقيه في الدكان ليشاهده المأمور .

لماذا الازدواجية ؟ لاسيما وأنتم تدعون التصوف والبحث عن السر الالهي؟

كانت هذه فكرة المرحوم والدك وقد انصعت لرغبته لأنني كنت موظفاً عنده بدا لي أن هذا الرجل يعرف الكثير عن أسرار أسرتنا فأجلت الحديث إلى أن تتوطد بيننا المعرفة والصداقة الأدرسه وأختبر مكنوناته لا ليبوح لي بالسر الالهي بل بالسر الأرضي والحيل الشيطانية ، فغيرت الحديث

لأقول :

يبدو لي أن كتب المكتبة المصفوفة على الرفوف ما كانت لتقرأ أو على الأقل ما كان يعمل بها أحد .

نعم وكثير من الكتب نقرؤها ولا نعمل بمضمونها وأحياناً لا نفهمها كأننا نحمل أسفاراً بدون فهم محتواها .

قلت :

فهمت أنك كنت موظفاً عند والدي تمسك له الحسابات .

قال :

أنا خريج كلية العلوم و الرياضيات وكنت من المتفوقين لكنني سيء الحظ .

لماذا سيء الحظ ؟

سأقص عليك الحكاية فيما بعد وستشعر بالدهشة . وأنت ماذا تعمل يا بني؟

أنا أستاذ جامعي وادرس في كلية

الفنون الجميلة ... قال :

مع الأسف كثير من الأكاديميين يدعون الفهم ولا يمتلكون الثقافة يا بني الثقافة فعل تراكمي متواصل ومجهد وعمل تفاعلي عليك أنت أيضاً أن تعطي الثقافة من ذاتك وأن تفرخ الأفكار وتقرأ ما بين السطور وأن تكون لك رسالة في الحياة .

قلت في نفسي : (الرجل مثقف وليس درويشاً أو متصوفاً بل بدا لي أنه يحمل شيئاً من مكر)

قلت له :

هذا صحيح مع الأسف فلم يسبقنا الآخرون إلا بالعلم التجريبي والاختراع ما رأيك أن نحول المكتبة ذات الكتب الصفراء والمخدع الذي يضم ثياب المولوية والدفوف إلى مركز أبحاث للعلوم والاختراع ونستقطب الموهوبين ونرعاهم باعتبارك خريج علوم ورياضيات .

هذا كان حلمي حتى تم واده

من قضى عليه ؟

الفاسدون وأصحاب المصالح والأصدقاء الحمقى .

ادرس هذا الموضوع الهام وأنا مستعد لتمويله

هل جاد فيما تقول ؟

لا أهذر في مثل هذه المسائل

يبدو أنك مختلف عن أخوتك وأبيك

ماذا تقصد؟.

سأشرح لك الأمر فيما بعد . في الزيارة القادمة .

من أنت يا عبد الرحمن الدهري ؟.

أنا ماسك حسابات متجر والدك الأول في الرياضيات والعلوم على دفعتي في الجامعة والمفروض أن أكافأ على تفوقي بإرسالي إلى أرقى الجامعات الغربية لأدرس الرياضات الحديثة وعلوم الذرة ، ولكن أحد المتنفذين الكبار أرسل ابنه بدلاً عني إلى

باريس في منحة لا يستحقها . فلم يفلح واستغل وجوده هناك في تهريب العملة والصرافة ثم عاد خائباً . وفي نهاية المطاف هرب هو وأبوه مع مليارات الدولارات إلى فرنسا وخان الوطن في ازمته بل راح يعامل المرتزقة والخونة. هل عرفت من أنا؟ أنا عبد الرحمن الدهري المتنور المظلوم في كل العصور.

وجدت نفسي ولست أدري لماذا أطرح عليه سؤالاً ليس في مكانه من موضوع الحوار.

ما رأيك في الحب يا عبد الرحمن؟

لم يستغرب السؤال ولم يندهش بل أجاب:

- تقوم الحياة على الحب و به يعمر الكون الحب عاطفة مشروعة منحها الله لبني البشر لكنهم في كثير من الأحيان لا يعرفون كنهها وجوهرها ، والأهم كيفية ممارستها ، وهم في معظم الحالات يسيئون إليها بتغيير مفهومها الحب والوفاء صنوان . هناك يا ولدي لبس بين الحب والجنس فبعض الناس لا يفرقون بين الحب والجنس ويعتبرون الاثنين وجهين لعملة واحدة في حين أن بعض الناس على العكس من ذلك يؤثم ويدين كل من يلوث الحب بأدران الجنس .

قلت له :

كيف يتكون الحب يا سيدي ؟

قال:

- إن أهم شيء هو الاهتمام بالشخص المحبوب فبدون هذا الاهتمام يكون الحب ليس إلا رغبة أو نزوة . وبعد الاهتمام يأتي الاحترام وهو ضروري لازدهاره وتكونه ولا يدوم الحب إلا بالوفاء والاخلاص . أما التضحية فهي العنصر الثالث أمام جميع المغريات .

عجبت لفكر هذا الرجل العجوز إنه فكر تقدمي فلسفي عن الحب والحياة وقد هزني ووجهني توجيهاً جديداً فصممت على تحويل المخدع والمكتبة إلى مركز أبحاث وتنوير لا إلى بوهيمية ومستنقعات.

الفصل الحادي عشر

اتضح أمامي الأفق الواسع بلون الجمر وتجسدت فكرة الانتقام في ذهني كحقيقة واقعة لابد من تنفيذها . كيف تخدعني هذه الصغيرة الماكرة الخائنة وتعطيني أوهام الحب السرابية الفارغة؟ هل لأنني أعطيتها أكثر مما ينبغي من الدلال والاهتمام ؟ أعرف أنها على مستوى المصالح القريبة ذكية وتعرف كيف تؤكل الكتف، لكنها على المستوى البعيد والاستراتيجي غبية جداً أضف إلى ذلك تميزها بعناد فظيع وتمسك برأيها الخاطئ غير المسبوق

لقد كلفتني بإعداد مكتبها وكان الأولى أن تكلف عشيقها سمير وقد أهديتها الستائر وكرسياً فخماً للطاولة . بينما اشترت طاولة من مالها كلفتها أكثر من خمسة وسبعين ألف ليرة وأهداها قريبها كرسياً فخماً لكنه بحاجة إلى إصلاح فحملته بسيارتي إلى سوق ساروجة وتم إصلاحه ثم نقلته إلى مكتبها وصارت نظرتها للأمور نظرة مادية بحتة ومكشوفة بعد أن كانت لا تهتم بالمال وتيقنت أن دوام هذه العلاقة باتت تحكمها المصالح أضف إلى ذلك تضاؤل العواطف والاعتذار عن أي عرض للقاء حميمي كما كان يحدث في السابق بالكاد تحولت إلى بغيض مموه فزاد والحالة هذه حب الانتقام من صبية خانت بكل جرأة ووقاحة فكيف سيكون الرد و كيف سيكون الانتقام الذي سيشفي صدري ويروي غليلي ولاسيما وأنها كانت تحضر محاضراتي مع عشيقها سمير وتتجول معه في حدائق وساحات الجامعة ويعرف زملاؤها أن هذا هو عشيقها الذي انبهرت به بنظرات واضحة فاضحة .

كنت أشاهد وأراكم غيرة قاتلة من قبلي وبلا مبالاة واضحة من قبلها وكأن ما كان يحدث طبيعي ومن حقها ممارسته.

الفصل الثاني عشر

كنت أقود سيارتي الأودي) في طريق متعرجة خطرة صاعداً المرتفعات هابطاً الوديان في طريق ضيقة زلقة متقطعة وظهرت في الأفق الغربي غيوم داكنة تنبئ بقدوم وابل مطر وشيك . وازداد غضبي وبغضي لهذه التي تجلس في المقعد إلى جانبي أنظر إليها بازدراء مبطن من طرف العين في الوقت الذي كانت فيه السرعة تزداد مع ازدياد العصف الهيستيري المجنون الذي كان يتوالد كسرطان في داخلي .. وأوحى إلي شيطان مريد كثيراً ما يعاودني بين الفينة والفينة أن أنفذ الخطة التي عزمت عليها بدون شفقة أو رحمة ، وأن يكون الانتقام كبيراً وهائلاً يوازي حبي الذي منحته الشابة خائنة لا تستحق.

قالت :

- لم كل هذه السرعة المجنونة فالطريق جميلة وأوراق أواخر الخريف في أزهى حلتها البنية الصفراء تلون العالم بالفرح فلم هذه الهيئة المكفهرة التي يلفها العبوس والغضب ؟

بعد قليل ستدركين الفعل والمآل والنتيجة الحتمية ازداد قلقها وتحول إلى رعب وحيرة

ثم قالت :

اعرف أن جنون الغيرة يركبك بين الحين والحين وأن الأوهام تعتريك بين الفينة والفينة وأخاف أن يصل الأمر بك إلى درجة المأساة .

لقد وصل إلى أبعد من ذلك وستشهدين ما هو أقسى من المأساة بنفسك

وصلنا إلى القمة الشاهقة وتوقفت عند الجرف الهاري المفضي إلى وادي الموت السحيق وابتعدت قليلاً إلى اليمين عن الطريق الإسفلتي الضيق لأدخل في طريق ترابي صخري يؤدي إلى حافة الانكسار الذي شكل الوادي ..

قالت :

ماذا تفعل أيها المجنون اقتربت جداً من الحافة ؟ قلت : ولماذا

سأقترب من الحافة أكثر حتى أصل إلى حافة الموت تماماً تقدمت بالسيارة ببطء حتى أوقفت الدولابين الأماميين على حافة الانحدار تماماً بحيث لم يبق لكي تهبط الوادي العميق سوى سنتيمتر واحد وإلى عمق يناهز المنتي متر .

ذعرت لوليتا وأصابها هلع فظيع .

بدأ صدرها يعلو ويهبط وصار صوتها يتقطع فقالت بنبرات تملكها الخوف حتى منتهاه:

- هل أنت مجنون ماذا تنوي أن تفعل ؟ لقد وقفت عند الهاوية تماماً أريد أن أعرف مدى العلاقة بينك وبينه و اين كنتما تمارسان الحب ؟

انت في منتهى الجنون حقاً هل هذا

وقته ؟ وهل هذا مكانه ؟

ستدفعين الثمن أيتها الخائنة البغيضة وبعد دقيقة ستكونين في القاع جثة تحترق .

أنت معي أيضاً ستحترق

- نعم سأدفع ثمن غلطتي بأنني أحببت خائنة . عشنا معاً وسنموت معاً .

في هذا الوقت انهار جزء من الجرف الذي نقف عليه أو بالأصح مكان ارتكاز الدولابين الأماميين للسيارة .

صاحت بهلع منقطع النظير :

- يا الهي أنقذني من هذا المجنون لا أريد أن أموت بهذه الطريقة لمحتها مندهشاً من رد فعلها السريع الهادئ في الوقت ذاته كذلك وهي تغير مكانها بكل انسياب لتنتقل إلى المقعد الخلفي العريض منزلقة بين المقعدين الأماميين مارة بقربي كسنجاب مذعور

قالت وهي تنزلق :

حبيبي ارجع إلى رشدك أنت في حالة من الهيستيريا فظيعة أرجع السيارة إلى الخلف .

قلت :

مستحيل رجوعها لأن حركتها ذات سحب أمامي والدولابان الأماميان سيدوران في الهواء وتبقى السيارة في مكانها .. أتفهمين ما أقصد؟

عند ذلك رأيتها تنسل من باب السيارة الخلفي لتأتي مسرعة وتفتح بابي وأنا قابع خلف المقود ارتجف فساعة الموت أفزعتني أيضاً .

كنت حائراً وتعطلت كل مبادرة لدي ، فوجئت بها تمسكني من يدي بعنف وتجرني من خلف المقود وتسحبني بكل قوة إلى خارج السيارة وكأنها تملك قوة ثلاثة رجال وقد أمدها الهلع بقوة إضافية ورأيت عينيها تتسعان بدرجة كبيرة وجسدها يرتعد مرتجفاً وبصوت ملا الوادي صداه صرخت :

. قم أيها الغبي المجنون فأمامك الكثير من السنوات قبل أن تموت خرجت من باب السيارة مسحوباً بقوتها المفاجئة ، ولكنني شعرت بوضوح أن الأرض تهتز تحت قدمي وأنا أستند فور خروجي من السيارة على أرض حسبتها ثابتة وقد هوى جزء من تحت قدمي اليمنى وهو صخرة متوسطة الحجم إلى الوادي فوقعت أرضاً وأنا أحاول التمسك بصخرة أخرى من الجرف مازالت في مكانها وكانت قدماي قد تدلتا إلى الهاوية.
أمسكتني بكل قوتها وشدتني نحوها لتضعني على الأرض الثابتة من الجرف ولتقف .
على حافة الهاوية معرضة نفسها لخطر السقوط. وكانت السيارة في هذه اللحظة تهوي إلى الوادي محدثة دوياً كقصف الرعد. ورأيت نفسي ناجياً من بين براثن الموت بفعل تلك التضحية والجرأة التي نقلتني إلى الأمان وقفت مشدوهاً لفترة وقد تعطلت لدي الحواس وردود الافعال برهة و عاد إلي اتزاني ورأيت النيران وقد اشتعلت في السيارة التي تحطمت ثم سمعت صوت انفجارها وقد هز المنطقة بأسرها .

وقفنا واجمين أمام هذا العمل الأرعن وقد هزتنا المأساة التي نجونا منها بأعجوبة .

بعد دقيقتين من الوجوم جاءت الصدمات الكهربائية المتلاحقة التي تهز الجسد الميت ، رأيت نفسي أضحك ضحكاً هيستيرياً ملا صداه الوادي ورأيتها أيضاً تضحك مثلي بكل ما أوتيت من قوة وقد ملأت الفرحة كيانها .

هجمت علي وضمتني بعنف لم أشهد في كل

علاقتي بها مثله قالت :

أحبك وحدك أيها المجنون ولم أحب في حياتي أحداً سواك .

ورغم أنني خسرت سيارتي الأودي التي يقدر ثمنها بعشرات الملايين إلا أنني شعرت كأنني كسبت كسباً لم أكسبه في حياتي كلها من قبل وفزت بأمل طالما تقت إلى تحقيقه . لقد اكتشفت بأم عيني مدى التضحية التي بذلتها من أجل الحفاظ على حياتي وكيف كانت تصارع الموت على حافة الهاوية وقد غلبته من اجلي وكيف كنت أمسك بالصخرة متدلياً باتجاه الهاوية السحيقة وكيف أنها أمسكتني بكل ما تملك من قوة مضافة وشدتني إلى بر الأمان . الآن نحن أحياء وقد نجونا .. أمسكت بيدي وجرتني باتجاه الغابة التي فرشت أرضها بأوراق الأشجار المتساقطة كثيفة طرية بألوان زاهية كالفرحة التي كنا نعيشها والتي جاءتنا فجأة بعد غيرة قاتلة .

لا أدري كم من الوقت عدونا فرحين لكني في نهاية المطاف استلقيت وإياها على الأوراق اليابسة الطرية وضممتها إلي بحنان لم أعهده في حياتي وقبلتها وكأنني أقبلها لأول مرة في حياتي كأروع ما يكون الحب المنتظر وفعلت هي كذلك غارسة أظافرها في ظهري وكأنها تعشق لأول مرة وتتلقى القبلة الأولى مثل أرض عطشى إلى المطر . وتيقنت الآن أنني امتلكها لأول مرة في حياتي الامتلاك الكامل ربما لأنني عرفت بأنها تحبني فعلاً لأنها أنقذتني ولم تدخر وسيلة أو قوة فوق طاقتها إلا وبذلتها ونجحت في آخر الأمر ولو لم تضحي بنفسها من أجل انقاذي لما كان هذا اليقين. أدركت أن الحب الحقيقي هو التضحية مضافة إلى الاهتمام والاحترام . هذا الثالوث المقدس ضروري لخلق الحب واستمراره وأننا لا نكتشفه إلا في المواقف الصعبة حيث لا يمكن للمحب الحقيقي أن يتخلى عن المحبوب وإذا كان هذا الحب قد اتسم بالجنون لفترة فإنه كان في كامل الوعي واليقظة عندما يتهدد وجوده طارئ وبدأ المطر يتساقط فانتعشنا مجدداً وعاد الفرح أقوى مما كان ودهمنا الغيم الذي غطى قمة الجبل فركضنا مجدداً حتى عثرنا على أجمة فيها ملجأ يحمي قليلاً من المطر ومارسنا الحب في هذه الأجواء التي

تشبه الخلق أو لحظة الصعق حينما تدب الروح لأول وهلة في إنسان يُخلق. كنا محمولين على غيمة وكانت أروع لحظات الحب .

الفصل الثالث عشر

شهر كامل بعد تلك الحادثة ، حادثة النجاة من الموت أجلس في المكتبة تارة وفي المخدع تارة أتأمل مستبطناً حياتي الماضية خلال ما يقرب من ستين عاماً أمضيتها أبحث عن حب منشود فيهرب مني مرة ويعود أخرى أو أسهر مع كأس من الخمر باحثاً عن شيء مفقود متوهماً مجداً سامقاً سأحققه هو سراب في حقيقته ووهم. هل كان أبي وأصدقاؤه يبحثون عبر التصوف والرقص المولوي ونقر المزهر والدف وضرب الشيش يبحثون مثلي عن سراب أو عن شيء مفقود يسمونه السر الالهي يلتمسون الحضرة أو الفناء في الذات أو الاتحاد في المطلق ؟ هل حالي وإياهم شيء واحد هو البحث عن الوهم المنتظر الذي لن يتحقق ونحن بانتظار الذي يأتي ولن يأتي وأنا الذي بحثت عن وهم الحب ما يقرب من نصف قرن عدت بخفي حنين وكدت أهوي مع سيارتي (الأودي) إلى هوة الوادي السحيق .. وإن رجوعها إلي كان بدافع النجاة وحب الحياة وليس بدافع التضحية الذي توهمته بعد الصدمة . فهي التي دافعت عن وجودها قبل وجودي وإن الجنس المرادف للموت حسب فرويد قد اشتعل بعد أن كنا قاب قوسين أو أدنى من الموت.

وقد قال لي أحد القضاة وكان يشهد عملية اعدام مجرم أنه أثناء تدليه من حبل المشنقة كان قد قذف وهو يتجرع الموت متدلياً كآخر محاولة لزرع بذوره قبل أن يغادر الحياة وإن كل من يحكم عليه بالشنق يقذف قبل موته بلحظات وكأن هناك علاقة مؤكدة ما بين الموت والحياة ، ولما سألت عن ذلك تبين أن هذه المعلومة حقيقة أكيدة

كنت قد قطعت جميع وسائل الاتصال واعتكفت في المكتبة والمخدع شهراً كاملاً منقطعاً عن العالم وأخباره وبينما أنا أعاود هيكلة العقل و مراجعة لحياتي كلها إذ سمعت طرقاً على باب المكتبة التي كان لها باب خارجي و باب داخلي يفضي إلى صحن الدار والغرف الداخلية .. كما ذكرت سابقاً من سيكون هذا الطارق ؟ وقد أخبرت أخي وأولاده أنني سأغيب في سفرة خارجية قد تطول. فتحت الباب وأنا في حيرة ووجل . ظهر رجل في السبعين من عمره . إنه عبد الرحمن الدهري الذي زارني في

المرة الأولى . يرتدي ثياباً رثة وله لحية بيضاء مهملة غير مشذبة . كان قد وعدني بأنه سيدلي إلي ببعض الأسرار.

قال مؤكداً وقد ظن أني نسيته :

أنا صديق أبيك وكنت موظفاً عنده أمسك له الحسابات ونسهر ليلة الخميس في المخدع الملحق بالمكتبة نقيم شعائر

التصوف ونمارس طقوس الرقص الصوفي بغية الحلول في المطلق ونروم الوصول للحضرة قلت له تفضل

وقد سبق أن التقينا مرة هنا ووعدتني بالعودة لشرح بعض التفاصيل والإدلاء ببعض الأسرار .

جلس على الأريكة وابتدأت أنا الحديث

وكأني استجوبه :

- ما مدى علاقتك بوالدي ومن أنت بالنسبة له ؟ وهل تعاملت مع عمي وأولاده بعد موته؟

سبق وأن قلت لك أنا عبد الرحمن الدهري أستاذ الرياضيات والأول على دفعتي الجامعية وقد عملت في دكان والدك وأجري له الحسابات ثم أصبحت صديقه وأمين أسراره . لم أكن في يوم صوفياً بل جاريت والدك في هوايته لتمتين الصداقة والثقة من

اجل المصالح . لم أكن في البداية كذلك لكنني لكي أعيش غيرت افكاري ، المجتمع ذو العادات الخاطئة هو من غيرني .

أرادوا إرسال ابن متنفذ بدلاً عني وأعفيت بحجة أنهم بلغوني ولم أحضر

كيف بلغوك ؟ .

بلغوني على غير عنواني لصقاً وادعوا أني لم أحضر رغم التبليغ وهي حيلة لإبعادي علمت فيما بعد أنها طريقة للاحتيال في عدم إرسالي ليحل شخص آخر بدلاً عني .

لم تنس تلك الخيانة منذ ما يقرب من نصف قرن؟

الخيانة لا تنسى أبد الدهر وقد تستمر لما بعد الموت فيحملها الأحفاد وأنا أعتقد أن الإنسان حيوان خائن

تعميم مبالغ فيه . لماذا لم تسع إلى وظيفة وشهادتك الجامعية تساعدك في ذلك؟

تقدمت إلى مسابقة ونجحت ولكني رسبت أمنياً .

هل أنت منتم إلى حزب هدام؟

لا أنتمي إلى أي حزب ولا أعمل في السياسة إنها عملية تنازع على الأمكنة والمدعوم هو الفائز .

كيف انتقلت الى الدروشة أقصد التصوف ؟

الإنسان يحب أن يكون منتمياً إلى ظهر يدعمه عند الشدائد . ولم أجد غير الله داعماً رغم أني حاولت لكن أحداً لم يقبلني في ظل مفاهيم تبادل المصالح إذ لم يكن لدي شيء لأقدمه وعندما عملت عند أبيك تقربت إليه عن طريق هذه الهواية

لماذا اختارك أبي؟

كنت (أنظم) له الحسابات وأخدع

دائرة الاستعلام الضريبي .

كيف ذلك؟

كنت أجعله يتهرب من ضريبة المالية بحيلة رياضية حتى إنه قال لي مرة أنت توفر علي من الضرائب أضعاف راتبك السنوي إن لك يداً ذهبية وإنتاجها يصب في خزانتي.

أبي كان يفعل ذلك ؟

نعم وترك أموال قارون

- لكن أخوتي لم يتركوا لي الكثير من ثروته .

لقد خدعوك وأعطوك الفتات

ماذا تقول يا رجل؟

أنا أمين سره وأعرف كل شيء

أصبت بصدمة صارت صدمة لوليتا فقاعة صابون عندها .

قال :

عندي طريقة لإرجاع مالك إليك

ماهي؟

عندما نتعاقد على صفقة . تعلمت في سن متأخرة لعبة المصالح المتبادلة

ماهي الصفقة؟

نصف المال الذي سأحصله لك أخذه مكافأة لي .

كم مقداره؟

مئات الملايين

أصابني ذهول ، الهذه الدرجة وصلت الأخلاق في البلد بغيابي يا الله ماذا جرى للناس؟

هل تعتقد أن صبية تحب كهلاً لسواد عيونه أم لما وراء ذلك؟

ماذا تقصد ؟

صبية دير العدس التي ضحيت بسيارة الأودي لأجلها .

من أدراك بذلك ؟

- البلد كلها تعرف وأنت كالنعامة التي تطمر رأسها في الرمل وتظهر جسدها

قلت :

يبدو أنك رجل خطير تعرف الكثير وتموه نفسك بالأسمال - الحياة علمتني ما كنت لا أعلم .

ماذا عندك أيضاً يبدو أن الوقت هو وقت عقد الصفقات

لم تتعلم كثيراً يا بني من سفرك

الرقص مع الأفاعي يعلم الكثير أصبت بصدمة أخرى السقوط في وادي الموت أرحم

السمسرة التي تقاضاها ابن أخيك عند شرائه لسيارتك الأودي بلغت خمسة ملايين ليرة.

لكنني دفعت عشراً

الخمسة الأخرى ذهبت لابن أخيك
وحفلات الخميس وضرب المزاهر والتوق إلى الحضرة والصلاة في وقتها ؟

اعط ما لقيصر لقيصر وما الله الله

ما شاء الله التبريرات جاهزة

نهض من كرسيه وقال :

راجع حساباتك وسأكون لك خير معين

والدفع (كاش) .

خرج كشيطان رجيم وقد اعتقدت أنه يزين لي الباطل . ولكنه لم لا يكون ملاكاً جاء ليكشف الغطاء وليكون بصري اليوم حديداً ؟ الأمور تحتاج إلى التأويل والتبصر العميق وأي حاسوب لم يوجد قادر على تحليل كل ذلك؟

أصبت بانفصام وفقدت توازني . أريد شخصاً يعيد إلى توازني وفطنت بلوليتا من غيرها يعيد إلى توازني ؟ ولكنني لم أتصل بها ولا بغيرها منذ شهر وأنا في محاولة إعادة هيكلة نفسي .

اتصلت بها رد علي شخص وقال :

من تريد ؟

أنا ناصر الدرعاوي أريد التكلم إلى قمر الملقبة بلوليتا.

هل أنت الفنان المشهور الذي يدرسنا في كلية الفنون الجميلة ؟

نعم وأنت من تكون؟

- أنا زوجها سمير وقد تزوجنا منذ أسبوع عقب عودتها من وادي جهنم وقد كانت برفقتك .

من أدراك بذلك؟

هي نفسها . وكانت تحكي لي أخباركما أولاً بأول .. دعها تعش زمانها يا استاذ وانت قد عشت زمانك .. فلا تتعد على زمن غيرك ثم أغلق في وجهي الهاتف.

لا شك أنني في حلم أو أنه قد أصابني مس من الجنون وضعت يدي على قلبي اعتصر ألماً شديداً ثم فتحت باب المكتبة والقيت بنفسي في وسط الشارع رافعاً يدي طالباً النجدة ولكن ترى من سينجدني ؟

تمت

... وجدت نفسي وقد توقفت عن التظاهر بالرسم واقتربت من الجسد الحار
الذي يدعوني بقوة إلى اجتياحه ولكن بصمت أوضح من الصراخ وقد شعرت
بوهجه وبالرائحة النفاذة التي حثت جسدي على الاقتراب لأتنفس انفاسها
ولأشم رائحة جسدها وعبير صدرها الذي لايقاوم فأخذتها بقوة مقتدر
وعندما خرجت منها كانت تعض بأسنانها على شفتها السفلى وتبتسم
ابتسامة الظفر فعلمت أنها قد نالت حظها كاملا من النشوة